

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢ - سُورَةُ الْحَجِّ

سميت به لاشتغالها على أصل وجوبه والمقصود من أركانه ، وهو الطواف ، إذ الإحرام نية ، والوقوف بعرفات من استعداده ، والسمى من تتمته ، والخلق خروج عنه . وذكر فيها منافعه وتعظيم شعائره وغير ذلك ، مما يشير إلى فوائده وأسراره . أفاده المهابي .

وعن مجاهد ، عن ابن عباس : أنها مكية سوى ثلاث آيات ^(١) (هَذَانِ خَصْمَانِ) إلى تمام الآيات الثلاث ، فإنهن نزلن بالمدينة . وفي آثار أخرى أنها كلها مدنية ، كافي الإتيان . وآياتها ثمان وسبعون آية .

(١) [٢٢ / الحج / ١٩ - ٢٢] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » يأمر تعالى عباده بِتَقْوَاهُ

التي هى من جوامع الكلم ، فى فعل المأمورات واجتناب النهيات .

قال المہامی : أى احفظوا تربيتہ علیکم ، بصرف نعمہ إلى ما خلقها لأجلہ ، لئلا تقعوا

فى الکفران الموجب لانقلاب التربية علیکم ، بالانتقام منکم . انتهى .

أى فالتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن السالكية والتربية ، مع الإضافة إلى ضمير مخاطبين ، لتأيد الأمر وتأكيد إيجاب الامتثال به ترغيباً وترهيباً . أى احذروا عقوبة ما لك أموركم ومريبتكم ، وقوله تعالى (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) تعليل لموجب الأمر ، بذكر بعض عقوباته الهائلة . فإن ملاحظة عظمها وهولها ، وفظاعة ما هى من مبادئه ومقدماته ، من الأحوال والأحوال ، التي لا ملجأ منها سوى التدرع بلباس التقوى ، مما يوجب مزيد الاعتناء بملابسته وملازمته لا محالة . و (الزلزلة) التحريك الشديد والإزعاج العنيف ، بطريق التكرير بحيث يزيل الأشياء من مقارها ويخرجها عن مراکزها . وإضافتها للساعة ، من إضافة المصدر إلى فاعله مجازاً ، كأنها هى التي تزلزل . أو إلى ظرفه . وهى الزلزلة المذكورة فى قوله تعالى ^(١) (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا) وفى التعبير عنها بـ (الشيء) ، إيدان بأن العقول قاصرة عن إدراك كنهها ، والعبارة لا تحيط بها إلا على وجه الإبهام . أفاده أبو السعود .

وقد وصف عظمها فى كثير من السور والآيات . كسورة التکویر وسورة الانقطار

(١) [٩٩ / الزلزلة / ١] .

وسورة الانشقاق وسورة الزلزال وغيرها . وقد أُشير إلى شيء من بليغ هولها بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

« يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ » أى عن إرضاعها . أو عن الذى أَرْضَعَتْهُ وهو الطفل « وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا » أى ما فى بطنها لغير تمام « وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ » أى كأنهم سكارى « وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ » أى على التحقيق « وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » أى ولكن مارهقهم من خوف عذاب الله ، هو الذى أذهب عقولهم ، وطير تمييزهم ، وردهم فى نحو حال من يذهب السكر بعقله وتميزه . قاله الزمخشري .

لطيفة :

قال الناصر فى (الاتصاف) : العلماء يقولون : إن من أدلة المجاز صدق نقيضه ، كقولك (زيد حمار) إذا وصفته بالبلادة . ثم يصدق أن تقول (وما هو بحمار) فتبنى عنه الحقيقة . فكذلك الآية . بعد أن أثبت السكر المجازى نفي الحقيقة أبلغ نفي مؤكّد بالبلاء . والسر فى تأكيده التنبيه على أن هذا السكر الذى هو بهم فى تلك الحالة ، ليس من الممهود فى شيء ، وإنما هو أمر لم يعمدوا قبله مثله . والاستدراك بقوله (وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) راجع إلى قوله (وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ) وكأنه تعليل لإثبات السكر المجازى . كأنه قيل إذا لم يكونوا سكارى من الخمر ، وهو السكر الممهود ، فما هذا السكر الغريب وما سببه ؟ فقال : سببه شدة عذاب الله تعالى . انتهى .

ثم أشير لحال المنكرين للساعة ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى يخاصم فى شأنه تعالى بغير علم .
فيزعم أنه غير قادر على إحياء من قد بلى وصار تراباً ، ونحو ذلك من الأباطيل « وَيَتَّبِعُ » أى
فى جداله « كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ » أى عات متمرد . كرؤساء الكفر الصادقين عن الحق . ثم
أشار لوصف آخر لهذا الشيطان المتبع ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ)

« كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ » أى قضى على
الشيطان أنه يضل من تولاه بأن اتخذه ولياً ، وتبعه ، ولا يهديه إلى الحق ، بل يسوقه إلى
عذاب جهنم الموقدة . وسوقه إياه إليه ، بدعائه إلى طاعته ومعصية الرحمن .

تنبيه :

قيل : نزلت الآية فى النضر بن الحارث ، وكان جديلاً .

قال الزنجشريّ : وهى عامة فى كل من تعاطى الجدال فيما يجوز على الله وما لا يجوز ، من
الصفات والأفعال . ولا يرجع إلى علم ، ولا يعرض فيه بضرر قاطع . وليس فيه اتباع للبرهان
ولا نزول على النصفه فهو يخبط خبط عشواء ، غير فارق بين الحق والباطل . انتهى .

ثم بين تعالى الحجة القاطعة لما يجادلون فيه ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَا كُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّ كُم ، وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يَرْدُ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِّن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ، وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْتَبَتْ مِّنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ » أى من إمكانه وكونه مقدوراً له تعالى . أو من وقوعه « فَإِنَّا خَلَقْنَا كُم مِّن تَرَابٍ » أى خلقنا أول آبائكم ، أو أول موادكم ، وهو المني ، من تراب . إذ خلق من أغذية مقولدة منه . وغاية أمر البعث أنه خلق من التراب « ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ » أى تولدت من الأغذية الترابية « ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ » أى قطعة من الدم جامدة « ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ » أى قطعة من اللحم بقدر ما يعضغ « مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ » أى مصورة وغير مصورة . والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء . ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً « لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ » أى بهذا التدرج ، قدرتنا وحكمتنا ، وأن ما قبل التغير والفساد والتسكون مرة ، قبلها أخرى . وأن من قدر على تغييره وتصويره أولاً ، قدر على ذلك ثانياً . « وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » وهو وقت الوضع .

قال أبو السعود : استئناف مسوق لبيان حالهم ، بعد تمام خلقهم . وعدم نظم هذا وما عطف عليه في سلك الخلق الممثل بالتبيين ، مع كونهما من متماته ، ومن مبادئ التبيين أيضاً . لما أن دلالة الأول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات ، التي من جملتها البعث

المبحوث عنه ، أجلى وأظهر . أى ونحن نقر فى الأرحام بعد ذلك ما نشاء أن نقره فيها إلى أجل مسمى .

« ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ » أى كمال قوتكم وعقلكم . قال أبو السعود علة لـ (نُخْرِجُكُمْ) معطوفة على علة أخرى مناصبة لها . كأنه قيل : ثم نخرجكم لتكبروا شيئاً فشيئاً . ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والتميز « وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى » أى بعد بلوغ الأشد أو قبله « وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ » وهو الهرم والخرف . والأردل الأردأ « لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا » أى من بعد علم كثير ، شيئاً من الأشياء ، أو شيئاً من العلم ، مبالغة فى انتقاص علمه وانعكاس حاله واللام العاقبة .

قال البيضاوى : والآية - يعنى ثم نخرجكم الخ - استدلال ثان على إمكان البعث ، بما يعترى الإنسان فى أسنانه من الأمور المختلفة والأحوال المتضادة . فإن من قدر على ذلك قدر على نظائره .

ثم أشار تعالى إلى حجة أخرى على صحة البعث ، بقوله « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً » أى ميتة يابسة « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ » أى المطر « اهْتَزَّتْ » أى تحركت بالنبات « وَرَبَتْ » أى انتفخت وعلت ، لما يتداخلها من الماء ويعلو من نباتها « وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ » أى صنف « بَهيجٍ » أى حسن رائق يسر ناظره وهذه الحجة الثالثة ، لظهورها وكونها مشاهدة معينة ، يكررها الله تعالى فى كتابه الكريم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٧] (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ » أى ذلك الذى ذكر من خلق الإنسان على أطوار مختلفة ، وتصريفه فى أحوال متباينة ، وإحياء الأرض بعد موتها ، حاصل بسبب أن الله هو الحق

وحده في ذاته وصفاته وأفعاله . المحقق لما سواه من الأشياء . فهي من آثار ألوهيته وشؤونه الذاتية وحده؛ وما سواه مما يعبد باطل ، لا يقدر على شيء من ذلك «وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى» أى يقدر على إحيائها ، إذ أحيى النطفة والأرض الميتة «وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» فإن القدرة التي جعل بها هذه الأشياء العجيبة ، لا يمتنع عليها شيء «وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا» أى لاقتضاء الحكمة إياها . فهي في وضوح دلائلها التكوينية ، بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب في إتيانها «وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ» أى من الأموات، أحياء إلى موقف الحساب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ، بَغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

[٩] (ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

عَذَابَ الْحَرِيقِ)

[١٠] (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بَغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ » أى يجادل

في شأنه تعالى من غير تمسك بعلم ضرورى ، ولا باستدلال ونظر صحيح ، يهذى إلى المعرفة .

ولا بوحى مظهر للحق . أى بل بمجرد الرأى والهوى . وهذه الآية في حال الدعاة إلى الضلال من

رءوس الكفر المقلدين - بفتح اللام - كما أن ما قبلها في حال الضلال الجهال المقلدين - بكسر

اللام - فلا تكرر . أو أنهما في الدعاة المضلين . واعتبر تغاير أوصافهم فيها ، فلا تكرر أيضا .

قال في (الكشف) : والأول أظهر وأوفق بالمقام . وكذا اختاره أبو مسلم فيما نقله عنه

الرازى ، ثم قال : فإن قيل كيف يصح ما قلتم ، والمقلد لا يكون مجادلا ؟ قلنا : قد يجادل

تصويبا لتقليده . وقد يورد الشبهة الظاهرة إذا تمسكن منها . وإن كان معتمده الأصلي هو

التقليد .

وقوله « ثَانِيَ عِطْفِهِ » حال من فاعل (يجادل) أى عاطفا لجانبه إعراضاً واستكباراً عن الحق، إذا دعى إليه .

قال الزمخشري : ثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء . كتصغير الخدة ولى الجيد .
وفوله « لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى ليصد عن دينه وشرعه ، متعلق بـ (يجادل) علة له
« لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ » أى إهانة ومذلة ، كما أصابه يوم بدر من الصغار والفشل « وَنَذِيقُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ » أى النار المحرقة « ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ » على الانتفات ،
أو إرادة القول . أى : يقال له يوم القيامة : ذلك الخزي والتعذيب بسبب ما اقترفته من
الكفر والضلال والإضلال . وإسناده إلى (يديه) ، لما أن الاكتساب عادة يكون بالأيدي .
« وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمِيدِ » أى بل هو العدل في معاقبة الفجار ، وإثابة الصالحين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ،
وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ » شروع في حال المذبذبين ، إثر بيان حال
المجاهرين . أى ومنهم من يعبد تعالى على طرف من الدين ، لا في وسطه وقلبه . وهذا مثل
لكونهم على قلق واضطراب في دينهم ، لا على سكون وطمأنينة . كالذى ينحرف إلى طرف
الجيش . فإن أحسّ بظفر وغنيمة قرّ وإلا قرّ « فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ » أى دنيوى من صحة وسعة
« اطْمَأَنَّ بِهِ » أى ثبت على ما كان عليه ظاهراً « وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ » أى ما يفتتن به من
مكروه ينزل به « انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ » أى رجع إلى ما كان عليه من الكفر « خَسِرَ »
أى بهذا الانقلاب « الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ » أى ضيعهما بذهاب عصمته ، وحبوط عمله ، بالارتداد
« ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » أى الواضح الذى لا يخفى على ذى بصيرة .

تنبيه :

قال ابن جرير ^(١) : يعنى جل ذكره بقوله (وَمِنَ النَّاسِ) الخ أعرابا كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مهاجرين من باديتهم . فإن نالوا رخاء ، من عيش بعد الهجرة ، والدخول في الإسلام ، أقاموا على الإسلام . وإلا ارتدوا على أعقابهم . وبنحو الذى قلنا قال أهل التأويل . ثم أسنده من طرق .

وهذا مما يؤيد أن السورة مدنية كما قاله جمع . وتقدم ذلك .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)

« يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ » أى حال ثابتة من فاعل (انقلب) والأولى (خسر) ولذلك قرئ (خاسر) أى ارتد عن دين الله يدعو من دونه آلهة لا تنضره ، إن لم يعبدوها في الدنيا ، ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها . وقال أبو السموذ (يدعو) استثناف مبين لعظيم الخسران « ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ » أى عن الحق والهدى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلِبِئْسَ الْعَشِيرُ)

« يَدْعُو » أى هذا المنقلب على وجهه ، إذا أصابته فتنة « لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ » أى وثناً أو صنماً ، ضره في الدنيا بالذل والخزي وفي الآخرة بالعذاب ، أسرع إليه من نفعه الذى يتوقعه بعبادته ، وهو الشفاعة والتوسل به إلى الله تعالى . فاللام زائدة في المفعول به ،

(١) انظر الصفحة رقم ١٢٢ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

وهو (مَنْ) كما زيدت في قوله تعالى ^(١) (رَدِفَ لَكُمْ) في وجهه . وذكر أن ابن مسعود كان يقرؤه (يَدْعُو مَنْ ضَرُّهُ) بغير لام . وهي مؤيدة للزيادة . و (ضَرُّهُ) مبتدأ ، و (أقرب) خبر . وفي الآية وجوه كثيرة هذا أظهرها . وإثبات الضرر له هنا ، باعتبار معبوديته . ونفيه قبل ، باعتبار نفسه . والآية بمثابة الاستدراك أو الإضراب عما قبلها ، بإثبات ضرر محقق لاحق لما بعده ، تسفيها وتجهيلا لاعتقاده فيه أنه يستنفع به حين يستشفع به . وإيراد صيغة التفضيل ، مع خلوه عن النفع بالمرّة ، للمبالغة في تقبيح حاله ، والإيمان في ذمه « كَيْبَسَ الْعَوَالِي » أي الفاصر له « وَلَيْبَسَ الْعَشِيرُ » أي المصاحب له . ولما بين سوء حال الكفرة من المجاهرين والمذبذبين ، أعقبه بكال حسن حال المؤمنين ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)

« إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » أي من الأفعال المبنية على الحكمة ، التي من جملتها إثابة من أطاعه وتعذّب من عصاه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

« مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ »

(١) [٢٧ / النمل / ٧٢] .

أى بجبل إلى مايلوه « ثُمَّ لَيَقْطَعَنَّ » أى ليختنق « فَلَيَنْظُرَنَّ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ » أى غيظه . والمعنى من استبطأ نصر الله وطلبه عاجلاً ، فليقتل نفسه . لأن له وقتاً لا يقع إلا فيه . فالآية فى قوم من المسلمين استبطأوا نصر الله ، لاستعجالهم وشدة غيظهم ، وحنقهم على المشركين . وجوز أن تكون فى قوم من المشركين ، والضمير فى (ينصره) للنبي صلى الله عليه وسلم . والمعنى : من كان منهم يظن أن لن ينصر الله نبيه ، فليختنق وليهلك نفسه ، ثم لينظر فى نفسه ، هل يذهب احتياله هذا فى المضاربة والمضادة ، ما يغيظه من النصرة ؟ كلا . فإن الله ناصر رسوله لا محالة . قال تعالى^(١) (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَبِوَمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَن يُرِيدُ)

[١٧] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

« وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ » أى القرآن الكريم « ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَن يُرِيدُ * » إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة ، أنه يقضى بينهم فى الآخرة بالعدل . فيدخل من آمن منهم به وعمل صالحاً ، الجنة . ومن كفر به ، النار . فإنه تعالى شهيد على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسر أئهم وما تكفه ضمائرهم . وتقدم فى سورة البقرة التعريف بـ (الصابئين) والمراد بـ (الذين) أشركوا

(١) [٤٠ / غافر / ٥١] .

كفار العرب خاصة . لأن المشركين في إطلاق التنزيل ، بمثابة العلم لهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ، وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)
« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ » بيان لمظمتة تعالى وانقراده بألوهيته وربوبيته ، بانقياد هذه العوالم العظمى له ، وجريها على وفق أمره وتديره . فالسجود فيها مستعار من معناه المتعارف ، لمطاوعة الأشياء له تعالى ، فيما يحدث فيها من أفعاله ، ويجريها عليه من تديره وتسخيرها لها . ووجه الشبه الحصول على وفق الإرادة من غير امتناع منها فيهما . وقوله (وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ) إما معطوف على ما قبله ، إن جوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه جميعاً ، فيكون السجود في الجمادات الانقياد ، وفي العقلاء العبادة . أو مبتدأ خبره محذوف . أو فاعل لمضمر ، إن لم يجوز ذلك . وقوله تعالى :
« وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ » أى من الناس . أى بكفره واستعصائه « وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ » أى بأن كتب عليه الشقاوة حسبما علمه من صرف اختياره إلى الشر « فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ » أى يكرمه بالسعادة « إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (هَٰذَانِ خَصَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ)
« هَٰذَانِ خَصَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ » يعنى فريق المؤمنين وفريق الكافرين المنقسمين

إلى الفرق الخمس المبينة في الآية قبل . و (الخصم) في الأصل مصدر . ولذا يوحد وينكر غالباً . ويستوى فيه الواحد المذكور وغيره ومعنى (اختصموا في ربهم) أى في دينه وعبادته . والاختصام يشمل ما وقع أحياناً من التمازج الحقيقي بين أهل الأديان المذكورة ، والمعنوى . فإن اعتقاد كل من الفريقين بحقية ما هو عليه ، وبطلان ما عليه صاحبه ، وبناء أقواله وأفعاله عليه ، خصومة للفريق الآخر . وإن لم يحز بينهما التمازج والخصام . ثم أشار إلى فصل خصومتهم المذكور في قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) بقوله سبحانه : « فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ » أى قدرت « لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ » أى الماء الحار .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (يُضْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ)

[٢١] (وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ)

[٢٢] (كَلَّمَآ أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ)

[٢٣] (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ)

[٢٤] (وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُّوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ)

« يُضْهِرُ » أى يذاب « بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ » أى من الأمعاء والأحشاء « وَالْجُلُودُ *

وَلَهُمْ مَقَامِعٌ » أى سياط يضربون بها « مِنْ حَدِيدٍ * كَلَّمَآ أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ

غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحْمَلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ

فِيهَا حَرِيرٌ وَهَدُوءٌ إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ « كَمَا قَالَ تَعَالَى ^(١) : (تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)
وَقَوْلُهُمْ ^(٢) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)
« وَهَدُوءٌ إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ » أى الحمود ، وهو الجنة . أو الحق تعالى ، المستحق لغاية الحمد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي
جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ
نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » أى مكة « الَّذِي
جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ » أى المقيم « فِيهِ وَالْبَادِ » أى الطارىء « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ
بِالْحَادِ » أى بميل عن القصد « بِظُلْمٍ » أى بغير حق « نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ » أى جزاء
على هتكه حرمة . ويشمل الإلحاد الإشرار ومنع الناس من عمارته ، واقتراف الآثام . وتدل
الآية على أن الواجب على من كان فيه ، أن يضبط نفسه ، ويسلك طريق السداد والعدل فى
جميع ما يهم به ويقصده . وقد ذهب بعض السلف إلى أن السيئة فى الحرم أعظم منها فى غيره ،
وأنها تضاعف فيه . وإن هم بها فيه أخذ بها . ومفعول (يرد) إما محذوف ، أى يرد شيئاً أو
مراداً ما ، والباء الملابسة . أو هى زائدة و (إلحاداً) مفعوله . أو للتعددية لتضمينه معنى
(يتلبس) . و (بظلم) حال مرادفة . أو بدل مما قبله ، بإعادة الجار . أو صلة له . أى ملحداً
بسبب الظلم . وعلى كل ، فهو مؤكد لما قبله . ومن قوله (نَذِقْهُ) الح يؤخذ خبر (إن) . ويكون
مقدراً بعد قوله (وَالْبَادِ) مدلولاً عليه بآخر الآية ، كما ارتضى ذلك أبو حيان فى (البحر) .

(١) [١٠ / يونس / ١٠ و [١٤ / إبراهيم / ٢٣] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٧٤] .

ثم أشار تعالى إلى تقرير وتوبيخ من عبد غيره وأشرك به في البقعة المباركة ، التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

« وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ » أى واذكر إذ عيناه وجعلناه له مباءة ، أى منزلاً ومرجعاً لعبادته تعالى وحده (فَأَنْ) فى قوله تعالى (أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا) مفسرة (بَوَّأْنَا) من حيث إنه متضمن لمعنى (تعبدنا) لأن التبوئة للعبادة . أى فعلنا ذلك لئلا تشرك بى شيئاً « وَطَهِّرْ بَيْتِيَ » أى من الأصنام والأوثان والأفذار « لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » أى لمن يطوف به ويقم ويصلى . أو المراد بالقائمين وما بعده (المصلين) ، ويكون عر عن الصلاة بأركانها ، للدلالة على أن كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك ، فكيف وقد اجتمعت ؟ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)

[٢٨] (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ)

« وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ » أى ناد فيهم به ، قال الزمخشري : والنداء بالحج أن يقول : حجّوا ، أو عليكم الحج « يَأْتُوكَ رِجَالًا » أى مشاة ، جمع (راجل) « وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ »

أى ركبائاً على كل بعير مهزول ، أتعبه بُعد الشقة فهزله . والعدول عن (ركبائاً) الأخصر ، للدلالة على كثرة الآتين من الأماكن البعيدة ، وقوله تعالى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » لأنه في معنى الجمع . وقرئ (يأتون) صفة للرجال والركبان . أو استئناف ، فيكون الضمير للناس « مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » أى طريق واسع بعيد « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ » أى ليحصرُوا منافع لهم دينية ودنيوية « وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » أى على ما ملأهم منها ، وذللهم ، ليجعلوها هدياً وضحايا . قل الزمخشري كنى عن النحر والذبح ، بذكر اسم الله . لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نَحَرُوا أو ذَبَحُوا . وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله أن يذكر اسم الله - زاد الرازي - وأن يخالف المشركون في ذلك . فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان ، قال القفال : وكأن المتقرب بها وبارقة دماؤها مقصور بصورة من يفدى نفسه بما يعادلها . فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته ، طلباً لمرضاة الله تعالى ، واعتراضاً بأن تقصيره كاد يستحق مهجته . والأيام المعلومات أيام العشر . أو يوم النحر وثلاثة أيام أو يومان بعده . أو يوم عرفة والنحر ويوم بعده . أقوال للأئمة .

قال ابن كثير : ويعضد الثانى والثالث قوله تعالى (عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ)
يعنى به ذكر الله عند ذبحها . انتهى .

أقول - لا يبعد أن تكون (على) تعليلية ، والمعنى : ليذكروا اسم الله وحده في تلك الأيام بحمده وشكره وتسبيحه ، لأجل ما رزقهم من تلك البهيم . فإنه هو الرزاق لها وحده والمتفضل عليهم بها : ولو شاء لحظرها عليهم ولجعلها أوابد متوحشة . وقد امتن عليهم بها في غير موضع من تزيله الكريم . كقوله سبحانه ^(١) (أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

(١) [٣٦ / بس / ٧١ و ٧٢] .

والسرّ في إفراده هذه النعمة ، والتذكير بها دون غيرهما من نعمه وأياديه ، أن بها حياة العرب وقوام معاشهم . إذ منها طعامهم وشرابهم ولباسهم وأنائهم وخبأؤهم وركوبهم وسجّالهم . فلولاً تفضله تعالى عليهم بتذليلها لهم ، لما قامت لهم قائمة . لأن أرضهم ليست بذات زرع ، وما هم بأهل صناعة مشهورة ، ولا جزيرتهم متحضرة متمدنة . ومن كانوا كذلك ، فيجدر بهم أن يذكروا المتفضل عليهم بما يبقّهم ، ويشكروه ويعرفوا له حقه . من عبادته وحده وتعظيم حرمانه وشعائره . فلا اعتبار بها من ذلك ، موجب للاستمكانة لاراقها ، والخضوع له والخشية منه . نظير الآية - على ما ظهر لنا - . قوله تعالى ^(١) (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) هذا أولاً . وثانياً قد يقال : إنما أفردت لتتبع بما هو البر الأعظم والخير الأجل . وهو مواساة البؤساء منها . فإن ذلك من أجل ما يرضيه تعالى ، ويشيب عليه . والله أعلم .

« فَكُلُوا مِنْهَا » أي من لحومها . والأمر للندب . وإزاحة ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه . وقد ثبت ^(٢) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نحر هديه ، أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ ، فأكل من لحمها ، وحسا من مرقها .

وعن إبراهيم قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم . فرخص للمسلمين . فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل .

قال في (الإكليل) . والأمر الاستحباب حيث لم يكن الدم واجباً بإطعام الفقراء . وأباح مالك الأكل من الهدى الواجب ، إلا جزاء الصيد والأذى والنذر ، وأباحه أحمد ، إلا من جزاء الصيد والنذر . وأباح الحسن الأكل من الجميع تمسكاً بعموم الآية . وذهب قوم إلى أن

(١) [١٠٦ / قریش / ٣ و ٤] . (٢) الحديث انقرد به مسلم . أخرجه في :

١٥ - كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعنا) عن جابر بن عبد الله . والحديث في بيان حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، مفصلة أتم تفصيل ، فيحسن دراسته .

الأكل من الأضحية واجب ، لظاهر الأمر . وقومٌ إلى أن التصديق منها ندب ، وحملوا الأمر عليه . ولا تحديد فيما يؤكل أو يتصدق به ، لإطلاق الآية . انتهى .
« وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ » أى الذى أصابه بؤس أى شدة « الْفَقِيرِ » أى الذى أضعفه الإعسار ، والأمر هنا للوجوب . وقد قيل به فى الأول أيضاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)
[٣٠] (ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ، فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ)

[٣١] (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)

« ثُمَّ » أى بعد الذبح « لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ » أى ليؤدوا إزالة وسخهم من الإحرام ، بالخلق والتقصير وقص الأظفار ولبس الثياب « وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ » أى ما يندرونه من أعمال البر فى حجهم « وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ » أى طواف الإفاضة . وهو طواف الزيارة الذى هو من أركان الحج . ويقع به تمام التحلل . و (العتيق) القديم . لأنه أول بيت وضع للناس . أو المعتقد من تسلط الجبارة « ذَلِكَ » خبر محذوف . أى الأمر ذلك . وهو وأمثاله من أسماء الإشارة ، تطلق للفصل بين الكلامين ، أو بين وجهى كلام واحد . قال الشهاب : والمشهور فى الفصل (هَذَا) كقوله ^(١) (هَذَا ، وَإِنْ لِلطَّائِفِينَ أَشْرَ مَا بَ) .

واختيار (ذلك) هنا لدلالته على تعظيم الأمر وبعد منزلته . وهو من الاقتضاب القريب من التخلص ، للمأمة مابعد لما قبله ، كما هنا « وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ » أى أحكامه . أو الحرم وما يتعلق بالحج من المناسك . و (الحرمات) جمع حرمة وهو ما لا يحل هتكه ، بل يحترم شرعاً « فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ » أى ثواباً . و (خير) اسم تفضيل حذف متعلقه . أى من غيره ، أو ليس المراد به التفضيل فلا يحتاج لتقدير ، قاله الشهاب . والثانى هو الأظهر ، لأنه أسلوب التنزيل فى مواضع لا يظهر التفاضل فيها . وإشاره ، مع ذلك ، لرقعة لفظه ، وجمعه بين الحسن والروعة « وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ » أى آية تحريمه . وذلك قوله فى سورة المائدة^(١) « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ » والمعنى : أن الله قد أحل لكم الأنعام كلها ، إلا ما استثناه فى كتابه . فحافظوا على حدوده . وإياكم أن تحرموا مما أحل لكم شيئاً . كتحریم عبدة الأوثان البهيرة والسائبة وغير ذلك . وأن تحلوا مما حرم الله . كإحلالهم أكل الموقودة والميتة وغير ذلك . أفاده الزمخشري . « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ » تفريع على ما سبق من تعظيم حرمانه تعالى . فإن ترك الشرك واجتناب الأوثان من أعظم المحافظة على حدوده تعالى . و (من) بيانية . أى فاجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان ، كما تجتنب الأنجاس . وهو غاية المبالغة فى النهى عن تعظيمها والتنفير عن عبادتها . قال الزمخشري : سمي الأوثان رجساً وكذلك الحجر والميسر والأزلام ، على طريق التشبيه . يعنى أنكم ، كما تنفرون بطباعكم عن الرجس وتجتنبونه ، فعليكم أن تنفروا عن هذه الأشياء مثل تلك النفرة . ونبه على هذا المعنى بقوله^(٢) « رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » جعل العلة فى اجتنابه أنه رجس ، والرجس مجتنب . وقوله تعالى « وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ » تعميم بعد تخصيص . فإن عبادة الأوثان رأس الزور . كأنه لما حث على تعظيم الحرمات ، أتبعه ذلك ، ردّاً لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب . وتعظيم الأوثان والافتراء على الله تعالى بأنه حكم بذلك ،

(١) [٥ / المائدة / ٣] . (٢) [٥ / المائدة / ٩٠] .

وإعلاماً بأن توحيد الله ونفى الشركاء عنه ، وصدق القول ، أعظم الحرمات وأسبغها خطأ « حُنَفَاءَ لِلَّهِ » مخلصين له الدين ، منحرفين عن الباطل إلى الحق « غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » أى شيئاً من الأشياء . ثم ضرب للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى ، فقال تعالى « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ » أى سقط منها فقطعت له الطيور في الهواء « أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ » أى تقذفه « فِي مَسْكَانٍ سَحِيقٍ » أى بعيد مهلك لمن هوى فيه . و(أو) للتخيير أو التنويع . قال الزمخشري : يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق . فإن كان تشبيهاً مركباً ، فكأنه قال : من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية . بأن صور حاله بصورة حال مَنْ خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فاختطفته الطير ، فتفرق مرفعاً في حواصلها . أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة . وإن كان مفروقاً ، فقد شبه الإيمان في علوه بالسما ، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله ، بالساقط من السماء . والأهواء التي تتوزع أفكاره ، بالطير المحتطفة . والشيطان الذي يطوح به في وادي الضلالة ، بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوى المتلفة . فكتب الناصر عليه : أماغلى تقدير أن يكون مفروقاً فيحتاج تأويل تشبيهه المشرك بالهاوى من السماء ، إلى التنبيه على أحد أمرين : إما أن يكون الإشراك المراد دته ، فإنه حينئذ كمن علا إلى السماء بإيمانه ثم هبط بارتداده وإما أن يكون الإشراك أصلياً ، فيكون قد عدت تمكن المشرك من الإيمان ومن العلو به ثم عدوله عنه اختياراً ، بمنزلة من علا إلى السماء ثم هبط كما قال تعالى ^(١) « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » فعدهم مخرجين من النور وما دخلوه قط ، ولكن كانوا متمكنين منه . وفي تقريره تشبيه الأفكار المتوزعة للكافر ، بالطير المحتطفة ، وفي تشبيه تطويع الشيطان بالهوى مع الريح في مكان سحيق - نظر . لأن الأمرين ذكرا في سياق تقسيم حال الكافر إلى قسمين . فإذا جعل الأول مثلاً لاختلاف الأهواء

(١) [٢ / البقرة [٢٥٧] .

والأفكار ، والثاني مثلاً لنزغ الشيطان ، فقد جعلهما شيئاً واحداً . لأن توزع الأفكار واختلاف الأهواء ، مضاف إلى نزغ الشيطان ، فلا يتحقق التقسيم المقصود . والذي يظهر في تقرير التشبيهين غير ذلك . فنقول : لما انقسمت حال الكافر إلى قسمين لا مزيد عليهما ، الأول منهما المذبذب والمتماهى على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة . فهذا القسم من المشرّكين مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته ، فلا يستولى طائر على مزعة منه إلا انتهبها منه آخر ، وذلك حال المذبذب . لا يلوح له خيال إلا اتبعه ونزل عما كان عليه . والثاني مشرك مصمم على معتقد باطل . لو نشر بالمدّشار لم يكع ولم يرجع . لا سبيل إلى تشكيكه ، ولا مطمع في نقله عما هو عليه ، فهو فرح مبتهج بضلاته . فهذا مشبه في إقراره على كفره ، باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل فاستقرّ فيه . ويظهر تشبيهه بالاستقرار في الوادى السحيق ، الذى هو أبعد الأخباء عن السماء ، وصف ضلاله بالبعد في قوله تعالى (١) :

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ) و (ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا) أى صمّموا على ضلالهم فبعُد رجوعهم إلى الحق فهذا تحقيق القسمين والله أعلم . انتهى كلامه .

ولا يخفى أن في النظم الكريم مساعاً له . إلا أنه لا قاطع به . نعم ، هو من بديع الاستنباط ، ورقيق الاستخراج . فرحم الله ناسجه .

قال ابن كثير (٣) وقد ضرب تعالى للمشرّكين مثلاً آخر في سورة الأنعام . وهو قوله تعالى (٢) (قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَأَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدًا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَهِنَا ، قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) الآية .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣] . (٢) [٤ / النساء / ١٦٧] .
(٣) انظر الصفحة رقم ٢١٩ من الجزء الثالث . (٤) [٦ / الأنعام / ٧١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

« ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ » أى علائم هدايته ، وهو الدين . أو معالم الحج ومناسكه . أو الهدايا خاصة ، لأنها من معالم الحج وشعائره تعالى . كما تنبى عنه آية (١) (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) وهو الأوفى لما بعده . وتعظيمها أن يختارها عظام الأجرام حسناً سماناً ، غالية الأثمان . ويترك المكاس في شرائها . فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهن : الهدى والأضحية والرقبة .

وعن سهل (٢) : كنا نسمن الأضحية في المدينة وكان المسلمون يسمنون . رواه البخارى .

وعن أنس (٣) : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى بكبشين أملحين أقرنين . رواه البخارى . وعن البراء (٤) مرفوعاً . أربع لا تجوز في الأضاحي ، العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ظلمها ، والكسيرة التي لا تنقى : رواه أحمد وأهل السنن . « فَإِنَّهَا » أى فإن تعظيمها « مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ » أى من أفعال ذوى التقوى . والإضافة إلى القلوب ، لأن التقوى وضدها تنشأ منها .

(١) [٢٢ / الحج / ٣٦] .

(٢) أخرجه البخارى تعليقا في : ٧٣ - كتاب الأضاحي ، ٧ - باب في أضحية النبي

صلى الله عليه وسلم ، بكبشين أقرنين ، ويذكر (سمينين) .

(٣) أخرجه البخارى في : ٣٧ - كتاب الأضاحي ، ٧ - باب في أضحية النبي صلى الله

عليه وسلم ، بكبشين أقرنين . ويذكر (سمينين) حديث رقم ٢٢١١ .

وأخرجه مسلم في : ٣٥ - كتاب الأضاحي ، حديث رقم ١٧ (طبعنا) .

(٤) أخرجه النسائي في : ٤٣ - كتاب الضحايا ، ٥ - باب ما نهى عنه من الأضاحي .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ)

« لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ » أى لستم فى الهدايا منافع دَرَّها ونسلها وصوفها وظهرها إلى وقت نحرها . وقد روى فى الصحيحين^(٤) عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يسوق بدنة قال : اركبها . قال : إنها بدنة قال : اركبها ، ويحك . فى الثانية أو الثالثة . وقوله (ثُمَّ مَحِلُّهَا) أى محل الهدايا وانتهائها إلى البيت العتيق وهو الكعبة كما قال تعالى^(٢) (هَدْيًا بَالِغَ الْكَمْبَةِ) وقال^(١) (وَالْهَدْيَ مَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ) .

قال فى (الإكمال) : فيه أن الهدى لا يذبح إلا بالحرم . وقيل : المعنى : محل هذه الشعائر كلها الطواف بالبيت العتيق . فيقتضى أن الحاج بعد طواف الإفاضة . يحل له كل شيء . وكذا روى عن ابن عباس : ما طاف أحد بالبيت إلا حل ، لهذه الآية . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ

بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ ، فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ، وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ)

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » .

أخرجه البخارى فى : ٢٥ - كتاب الحج ، ١٠٣ - باب ركوب البدن ، حديث

رقم ٨٧٨ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ٣٧٣ (طبعنا) .

(٢) [٥ / المائدة / ٩٥] . (٣) [٤٨ / الفتح / ٢٥] .

أى شرعنا لكل أمة أن ينسكوا . أى يذبحوا لوجهه تعالى ، على وجه التقرب . وجعل
العلة ، أن يذكر اسمه . تقدست أسمائه ، على النساءك . (منسكا) مصدر ميمي على أصله .
أو بمعنى المفعول . وفي الآية تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نعماً .
« فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا » أى أخلصوا له الذكر خاصة ، لا تشوبوه
بإشراك . « وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ
وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[٣٦] (وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ، فَاذْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ
وَالْمُعْتَرَّ، كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

« الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » أى خافت لتأثرهم عند ذكره مزيد تأثر
« وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا
لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا » أى فى ذبحها تضحية « خَيْرٌ » من المنافع الدينية
والدنيوية « فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ » أى قائمات قد صفن أيديهن وأرجلهن .
وعن ابن عباس : قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى . يقول : بسم الله ، والله أكبر ،
لا إله إلا الله : اللهم منك ولك . وفى الصحيحين ^(١) عن ابن عمر ؛ أنه أتى على رجل قد أناخ

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٥ - كتاب الحج ، ١١٨ - باب نحر الإبل مقيدة ،

حديث ٨٨٥ .

وأخرجه مسلم فى : ١٥ كتاب الحج ، حديث ٣٥٨ (طبعنا) .

بدنة وهو ينجرها . فقال : ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم : وفي صحيح مسلم^(١) عن جابر في صفة حجة الوداع ، قال فيه : فنجر رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ثلاثاً وستين بدنة . جعل يطعن بها بحربة في يده « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا » أى سقطت على الأرض ، وهو كناية عن الموت « فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ » أى السائل « وَالْمُعْتَرَّ » أى المتعرض بغير سؤال . أو القانع الراضى بما عنده وبما يعطى من غير سؤال ، والمعتز المتعرض بسؤال وقد استنبط من الآية أن الأضحية تجزأ ثلاثة أجزاء : فإكل ثلثاً ويهدى ثلثاً ويتصدق بثلث .

« كَذَلِكَ سَخَّرْنَاَهَا لَكُمْ لِمَتَّكُمْ تَشْكُرُونَ » أى ذللناها لكم ، لتشكروا إنا أنعمنا . والشكر صرف العبد ما أنعم عليه ، إلى ما خلق لأجله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ، كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ، وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ) « لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ » أى لن يصيب رضاه لحومها المتصدق بها ، ولادماؤها المرافقة ، من حيث أنها لحوم ودماء . ولكن بمراعاة النية والإخلاص ، ابتغاء وجهه الأعلى ، وبقرّب من هذه الآية قوله تعالى^(٢) (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ) إلى آخرها « كَذَلِكَ سَخَّرْنَاَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ » أى لتعرفوا عظمته فتوحدوه بالعبادة على ما أرشدكم إلى طريق تسخيرها ، وكيفية التقرب بها على لسان أكرم رسله المبعوث بسعادة الدارين . وإعما كرهه تذكيراً للنعمة وتعليلاً بما بعده .

(١) انفرد به مسلم . أخرجه في : ١٥ - كتاب الحج ، حديث رقم ١٤٧ (طبعنا) .

(٢) [٢ / البقرة / ١٧٧] .

وفي التعليل المذكور شاهد لما قدمناه أولاً في معنى قوله تعالى^(١) (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ) فتذكر . وقوله تعالى « وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ » أى المخلصين في أعمالهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) « إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » كلام مستأنف ، مسوق ليتوطين قلوب المؤمنين ، ببيان أن الله تعالى ناصرهم على أعدائهم ، بحيث لا يقدرّون على صدمهم عن الحج ، ليتفرغوا إلى أداء مناسكه . كذا قاله أبو السعود . وسبقه الرازى إليه . والأولى أن يقال : إنه طليعة لما بعده من الإذن بالقتال ، مبشرة بغاية النصرة والحفظ والسكّانة والعاقبة للمؤمنين . تشجيعاً لهم على قتال من ظلمهم ، وتشويقاً إلى استخلاص بيته الحرام ، ليتسنى لهم إقامة شعائره وأداء مناسكه . وقوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ » أى فى أمانة الله « كَفُورٍ » أى لنعمته بعبادته غيره ، فلا يرتضى فعلهم ولا ينصرهم . وصيغة المبالغة فيهما ، لأنه فى حق المشركين ، وهم كذلك ولأن خيانة أمانة الله وكفران نعمته لا يكون حقيراً ، بل هو أمر عظيم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [٤٠] (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(١) [٢٢ / الحج / ٢٨] .

« أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ » أى يقاتلهم المشركون . والمأذون فيه محذوف ، لدلالة المذكور عليه . وقرئ بكسر التاء . « بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * » الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغْيٍ حَقٍّ إِلَّا أَنَّ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ » أى بغير حق سوى التوحيد الذى ينبغى أن يكون موجب الإقرار والتمسكين ، لا موجب الإخراج والتسمير . ومثله ^(١) (هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ) وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم .

« وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدُمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا » أى لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين ، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين ، لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة فى أزمنتهم ، وعلى متعبداتهم فهدموها . قال ابن جرير ^(٢) : ومنه كفه تعالى ببعضهم الظالم . كالسلطان الذى كف به رعيته عن الظالم بينهم . ومنه كفه تعالى لمن أجاز شهادته بينهم ببعضهم عن الذهاب بحق من له قبله حق . ونحو ذلك . وكل ذلك دفع منه الناس بعضهم عن بعض . لولا ذلك لتظالموا . فهدم القاهرون صوامع المقهورين وبيعهم ، وما سعى جل ثناؤه . و (الصوامع) مباني الرهبانية لخلوتهم . (والبيع) معابد النصارى . و (الصلوات) روى عن ابن عباس أنه عنى بها كنائس اليهود . سميت بها لأنها محلها . وقيل هى بمعناها الحقيقية . و (هدمت) بمعنى عطلت . أو فيه مضاف مقدر « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » أى ينصر دينه وأوليائه . قال القاضى : وقد أنجز الله وعده ، بأن سلط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرتهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم . « إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

(١) [٥ / المائة / ٥٩] .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٧٥ من الجزء السابع عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

« الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » أى مرجعها إلى حكمه وتقديره . وفيه تأكيد لما وعده من إظهار أوليائه وإعلاء كلمتهم . ثم أشار تعالى إلى تسليمة نبيه صلى الله عليه وسلم ، عما يناله من أذى المشركين ، وحاضاً له على الصبر على ما ياحقه منهم من التكذيب ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ)

[٤٣] (وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ)

[٤٤] (وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ لِّلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ)

« وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ » وهم قوم هود « وَثَمُودُ » وهم قوم صالح « وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ » وهم قوم شعيب « وَكَذَّبَ مُوسَىٰ » وإنما لم يقل (وقوم موسى) كسابقه ، لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل ، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط . وفيه شيء آخر كأنه قيل ، بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم (وَكَذَّبَ مُوسَىٰ) مع وضوح آياته وعظم معجزاته ، فما ظنك بغيره ؟ أفاده الزمخشري .

قال الناصر : ويحتمل عندى ، والله أعلم ، أنه لما صدر الكلام بحكاية تكذيبهم ، ثم عدد أصناف المكذبين وطوائفهم ، ولم ينته إلى موسى إلا بعد طول الكلام ، حسن تكريره ليعلى قوله (فَأَمَلَيْتُ لِّلْكَافِرِينَ) فيتصل السبب بالسبب ، كما قال فى آية (ق) بعد تعديدهم ^(١) (كُلُّ كَذَّبٍ رُّشْلٌ فَحَقَّ وَعِيدِ) فربط العقاب والوعيد ، ووصلهما

(١) [٥٠ / ق / ١٤] .

بالتكذيب ، بعد أن جدد ذكره . والله أعلم .

وإيراد من زعم بأن موسى كذبه قومه بعبادة العجل ، إيراد من لم يفهم معنى التكذيب الذى هو ردّ دعوة النبىّ وعدم الإيمان به والإصرار على الكفر بوحيه ، والقيام فى وجهه وصد الناس عن اتباعه . وما وقع من قوم موسى هو تخليط ، وخطأ اجتهد ، وتعنّت ولجاج مع الاستغلال بظل دعوته ، والانتظام فى سلك إجابه . وقوله تعالى « فَأَمَلَيْتُ لِّلْكَافِرِينَ » أى أمهلهم « ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ » أى بالعقوبة « فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » أى إنكارى عليهم بالإهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ)

« فَكَأَيِّنْ مِّنْ قَرْيَةٍ » أى فكلم من أهالى قرية « أَهْلَكْنَاهَا » أى بالعذاب « وَهِيَ ظَالِمَةٌ » أى مشركة كافرة « فَهِيَ خَاوِيَةٌ » أى ساقطة « عَلَىٰ عُرُوشِهَا » أى سقوفها « وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ » أى وكلم من بئر متروكة لا يستقى منها ، لهلاك أهلها « وَقَصْرٌ مَّشِيدٌ » أى مرفوع . من (شاد البناء) رفعه . أو معناه مطلق ومعمول بالشيء ، بالسكسر ، وهو الجص ، أى مجصص ، أخليناه عن ساكنيه ، ومن شواهد الأول قول عدى بن زيد^(١) :

شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كُلًّا سَاءَ ، فَلَطِيرٌ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ

(١) هذا البيت من إحدى قصائده الأربع الغرر . ومطلع القصيدة :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمَعِيرُ بِالْدهْرِ — أَنْتَ الْمُبْرَأُ الْمَوْفُورُ

انظر (الشعر والشعراء) لابن قتيبة . ج ١ ص ١٧٦ ، تحقيق شيخنا المغفور له الشيخ

أحمد محمد شاكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

« أَفَلَمْ يَسِيرُوا » أى أهل مكة في تجارتهم « فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ » أى بما يشاهدونه من مواد الاعتبار « قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا » أى ما يجب أن يعقل من التوحيد « أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا » أى ما يجب أن يسمع من الوحي والتخويف « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » الضمير في (فإنها) للقصة . أو مبهم يفسره (الأبصار) . والمعنى : ليس الخلل في مشاعرهم ، وإنما هو في عقولهم باتباع الهوى والانهماك في الغفلة . وفائدة ذكر (الصدور) هو التأكيد مثل ^(١) (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ) و (طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) ^(٢) إلا أنه لتقرير معنى الحقيقة ، وهنا لتقرير معنى المجاز . وقال الزمخشري : الفائدة زيادة التصوير والتعريف وعبارته : الذى قد تمورف واعتقد ؛ أن العمى على الحقيقة مكانه البصر ، وهو أن تصاب الحدة بما يطمس نورها . واستعماله في القلب استعارة ومثل . فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ، ونفيه عن الأبصار ، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ، ليمتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار . كما تقول (ليس المضاء للسيف ، ولكنه للسانك الذى بين فكيك) ، فقولك (الذى بين فكيك) تقرير لما ادعيت له للسانه ، وتثبيت . لأن محل المضاء هو هو لا غير . وكأنك قلت : ما نفيت المضاء عن السيف . وأثبتته للسانك ، فلتة ولا سهوا منى ، ولكن تعمدت به إياه بعينه تعمداً .

(١) [٣ / آل عمران / ١٦٧] . (٢) [٦ / الأنعام / ٣٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ)

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ » أى المبين فى آية ^(١) (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) « وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ » أى فيصيبهم ما أوعدهم به ، ولو بعد حين « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » أى هو تعالى حلیم لا يمجّل ، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه ، كيوم واحد عنده ، بالنسبة إلى حلمه . لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شىء . وإن أنظر وأمل . ولهذا قال بعده :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ)

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا » أى أمهلها « وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ » إلى حكمى مرجع الكل فأجزئهم بأعمالهم . فتأثر هذه الآية ما قبلها صريح فى بيان خطئهم فى الاستعجال المذكور ، ببيان كمال سعة حلمه تعالى ، وإظهار غاية ضيق عظمهم ، المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى ، مُدداً طويلاً عندهم ، حسبما ينطق به قوله تعالى ^(٢) (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا) ولذلك يرون مجيئه بعيداً ، ويتخذونه ذريعة إلى إنكاره ، ويحتترون على الاستعجال به ، ولا يدرون أن معيار تقدير الأمور كلها ، وقوعاً وإخباراً ، ما عنده تعالى من المقدار . أفاده ابن كثير وأبو السعود .

وفى (الغاية) : لما ذكر استعجالهم ، وبين أنه لا يتخلف ما استعجلوه ، وإنما آخر

(١) [٨ / الأنفال / ٣٢] . (٢) [٧٠ / المعارج / ٧٦] .

حلما ، لأن اليوم ألف سنة عنده . فما استطالوه ليس بطويل بالنسبة إليه ، بل هو أقصر من يوم . فلا يقال : إن المناسب حينئذ أن ألف سنة كيوم ، والقلب لا وجه له . وقال الرازي : لما حكى تعالى من عظم ما هم عليه من التكذيب ، أنهم يستهزئون باستعجال العذاب ، بين أن العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة فقال (وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ) يعنى فيما يفاهم من العذاب وشدته (كألف سنة) لو عُدَّ في كثرة الآلام وشدتها . فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة ، وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه .

قال الرازي : وهذا قول أبى مسلم ، وهو أولى الوجوه . انتهى .

وقد حكاه الزخشرى بقوله : وقيل معناه : كيف يستعجلون بعذاب مَنْ يَوْمٌ واحد من أيام عذابه ، في طول ألف سنة من سنيكم . لأن أيام الشدائد مستطالة ، أى تمدطويلة . كما قيل :

تَمْتَعُ بِأَيَّامِ السُّرُورِ فَإِنَّهَا قِصَارٌ . وَأَيَّامُ الْهُمُومِ طَوَالٌ

أو كان ذلك اليوم الواحد ، لشدة عذابه ، كألف سنة من سنى العذاب . انتهى .

واعتمد الوجه الأول أبو السعود . وناقش فيما بعده ؛ بأنه لايساعده سياق النظم الجليل ولا سياقه . فإن كلا منهما ناطق بأن المراد هو العذاب الدنيوى . وأن الزمان الممتد هو الذى مرّ عليهم قبل حلوله بطريق الإملاء والإمهال . لا الزمان المقارن له . ألا يرى إلى قوله تعالى (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ) الخ ، فإنه صريح فى أن المراد هو الأخذ العاجل الشديد ، بعد الإملاء المديد . انتهى . وفيه قوة . فله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[٥٠] (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

[٥١] (وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

« قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا كُفْرٌ مُّبِينٌ * فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وهي الجنة « وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » أى والذين سعوا فى رد آياتنا ، وصدّ الناس عنها مشاقين . فالمعاجزة مستعمارة للمشاقة مع المؤمنين ومعارضتهم . فكما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله . كما يقال (جراه فى كذا) . قال تعالى ^(١) (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا) وقرئ (معجزين) بتشديد الجيم . بمعنى أنهم عجزوا الناس وثبطوهم عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإيمان بالقرآن . وكلمتا القراءتين متقاربة المعنى . وذلك أن من عجز عن آيات الله ، فقد عاجز الله . ومن معاجزة الله التمعيز عن آيات الله ، والعمل بمعاصيه ، وخلاف أمره . وكان من صفة القوم الذين نزلت فيهم الآيات أنهم كانوا يبطّثون الناس عن الإيمان بالله واتباع رسوله . ويغالبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحسبون أنهم يمعزون ويغالّبونه . وقد ضمن الله له نصره عليهم . فكان ذلك معاجزتهم الله . كذا فى الشهاب وابن جرير . ثم أشار تعالى إلى تسليمة رسوله صلوات الله عليه ، عما كان يلاقيه من صدّ شياطين قومه عن سبيل الله ، بأن تلك سنة كل رسول ، وأن العاقبة له ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْتَى الشَّيْطَانُ

فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَكِّمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى » أى رغب فى انتشار

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤] .

دعوته ، وسرعة علوّ شرعته « أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » أى بما يصدّ عنها ، وبصرف المدعوين عن إجابتها « فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ » أى يبطله ويمحقه « ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ » أى يثبتها ^(١) « فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » « وَاللَّهُ عَلِيمٌ » يعلم الإلقاءات الشيطانية ، وطريق نسخها من وجه وحيه . « حَكِيمٌ » يحكم آياته بحكمته . ثم أشار إلى أن من مقتضيات حكمته أنه يجعل الإلقاء الشيطانيّ فتنه للشاكرين المنافقين والقاسية قلوبهم عن قبول الحق ، ابتلاء لهم ليزدادوا إثمًا . ورحمة للمؤمنين ليزدادوا ثباتًا واستقامة ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)
 « لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ » أى شك وارتباب « وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ » وهم المعتاة المتمردون « وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ » أى خلاف للحق « بَعِيدٍ » عن موافقته جدا ، بسبب ظلمهم وشركهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
 « وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ » أى بالانقياد ، والخشية . والضمير للقرآن أو لله تعالى « وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى »
 (١) [١٣ / الرعد / ١٧] .

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» أى إلى طريق الحق والاستقامة، فلا تزل أقدامهم بقبول ما يلقى الشيطان ، ولا تقبل قلوبهم إلا ما يلقى الرحمن ، لصفائها . هذا هو الصواب فى تفسير الآية . ولها نظائر تظهر المراد منها كما أشرنا إليه ، لو احتاجت إلى نظير . ولكنها بيّنة بنفسها ، غنية عن التطويل فى التأويل ، لولا ما أحوج المحققين إلى ردّ ما دسه بعض الرواة هنا من الأباطيل . ونحن نسوق ما قيل فيها من ذلك ، ثم تتبعه بنقد المحققين ، لئلا يبقى فى نفس الواقف حاجة . قال ابن جرير الطبرى: قيل^(١) إن السبب الذى من أجله أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ، أن الشيطان كان ألقى على لسانه ، فى بعض ما يتلوه مما أنزل الله عليه من القرآن ، ما لم ينزل الله عليه . فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ واغتم به ، فسلاه الله مما به من ذلك ، بهذه الآيات . ثم ذكر من قال ذلك . فأسند عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس وغيرهما ؛ أن رسول الله ﷺ جلس فى ناد من أندية قريش ، كثير أهله ، فتمنى يومئذ ألا يأتيه من الله شيء فينفروا عنه . فأنزل الله عليه^(٢) (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ) فقرأها رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ^(٣) (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ) ألقى عليه الشيطان كلمتين (تلك الغرائيق العلى * وإن شفاعتهن لترتجى) فتكلم بها ، ثم مضى فقرأ السورة كلها . فسجد فى آخر السورة وسجد القوم جميعاً معه ، ورضوا بما تكلم به .

قالا : فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام فعرض عليه السورة . فلما بلغ الكلمتين المذكورتين قال : ما جئتكم بهاتين . فحزن رسول الله ﷺ . فأنزل الله تبارك وتعالى عليه يعزيه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

وقال القاضى عياض فى (الشفاء) : اعلم أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين : أحدهما فى توهين أصله ، والثانى على تسليمه .

(١) انظر الصفحة رقم ١٨٦ من الجزء السابع عشر .

(٢) [٥٣ / النجم / ٢١] . (٣) [٥٣ / النجم / ١٩ و ٢٠] .

أما المأخذ الأول ، فيكفيك أن هذا لم يخرج أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل . وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب ، المتلففون من الصحف كل صحيح وسقيم . وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال : لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفاسير . وتعلق بذلك الملاحدون مع ضعف بعض نقلته ، واضطراب رواياته ، وانقطاع إسناده ، واختلاف كلماته . ومن حكيته عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب . وأكثر الطرق عنهم فيها ، واهية ضعيفة ، والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فيما أحسب (الشك في الحديث) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة ، وذكر القصة .

قال أبو بكر البرزاري : هذا الحديث لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد متصل ، يجوز ذكره إلا هذا ، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد . وغيره يرسله عن سعيد بن جبير . وإنما يعرف عن السكابي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس . فقد بين لك أبو بكر رحمه الله أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا . وفيه من الضعف ما نبه عليه ، مع وقوع الشك فيما ذكرناه ، الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه . وأما حديث السكابي فلا تجوز الرواية عنه ولا ذكره ، لقوة ضعفه وكذبه ، كما أشار إليه البرزاري رحمه الله : والذي منه في الصحيح ؛ أن النبي ﷺ قرأ سورة (والنجم) وهو بمكة . فسجد معه المسلمون والمشركون والانس والجن . هذا توهينه من طريق النقل .

وأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته عليه السلام ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة . إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح غير الله وهو كفر ، أو أن يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، حتى ينهبه عليه جبريل عليهما السلام ، وذلك كله ممتنع في حقه عليه السلام . أو يقول ذلك النبي ﷺ من

قبل نفسه عمداً ، وذلك كفر . أو سهواً وهو معصوم من هذا كله . ووجه ثان - وهو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً . وذلك أن الكلام ، لو كان كما رُوى ، بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف . وأما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ، ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل . فكيف بمن رجح حلمه ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ؟ ووجه ثالث - أنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندى المشركين وضعة القلوب والجهلة من المسلمين ، تقورهم من أول وهلة ، وتحليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة ، وتعميرهم المسلمين والشُّمات بهم الفينة بعد الفينة . وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة . ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل . ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة . ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة . كما فعلوه مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردّة . وكذلك ما روى في قصة القضية . ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت . ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت . فما روى عن معاند فيها كلمة . ولا عن مسلم بسببها بنت شفة . فسدل على بطلها ، واجتثاث أصلها . ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن ، على بعض مغفلى المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين .

وجه رابع - ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت^(٤) (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) الآيتين . وهاتان الآيتان تردّان الخبر الذى رووه . لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ، وأنه لولا أن ثبتته لكاد يركن إليهم . فمضمون هذا ومفهومه ، أن الله تعالى عصمه من أن يفترى ، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً ، فكيف كثيراً ؟ وهم يروون في أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم . وهذا ضد مفهوم الآية ، ويضعف الحديث ، لو صح ، فكيف ولا صحة له ؟ وأما المأخذ الثانى فهو مبنى على تسليم الحديث ، لو صح . وقد أعادنا الله من صحته . ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك

أئمة المسلمين بأجوبةٍ منها الغث والسمين . فمنها ما رواه قتادة ومقاتل أن النبي ﷺ أصابته سنة عند قراءة هذه السورة . فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم . وهذا لا يصح . إذ لا يجوز على النبي ﷺ مثله في حالة من أحواله . ولا يخلق الله على لسانه ولا يستولى الشيطان عليه في نوم ولا يقظة ، لمصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو . وقد قال عليه السلام ^(١) (إن عيني تنامان ولا ينام قلبي) . وفي حديث الكلبي : أن النبي ﷺ حدث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه . وفي رواية ابن شهاب عن أبي بكر بن عبد الرحمن قال : ومنها لما أخبر بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان . وكل هذا لا يصح أن يقوله عليه السلام لا سهواً ولا قصداً . ولا يتقوله الشيطان على لسانه . وقيل : لعل النبي ﷺ قاله أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتوبيخ للكفار . كقول إبراهيم ^(٢) (هَذَا رَبِّي) على أحد التأويلات . وكقوله ^(٣) (بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا) بعد السكت وبيان الفصل بين الكلامين . ثم رجع إلى تلاوته . وهذا ممكن مع بيان الفصل وقريئة تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلو . وهو أحد ما ذكره القاضي أبو بكر .

ومما يظهر في تأويله ، إن سلمنا القصة ، أن يراد بالغرانيق الملائكة . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح . فلما تأوله المشركون على أن المراد بها آلهتهم ، ولبس عليهم الشيطان ذلك وزينه في قلوبهم ، وألقاه إليهم ، نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين . انتهى كلام القاضي ملخصاً .

وقال أبو بكر الباقلاني : وقيل : كان ﷺ يرتل القرآن ، فارتصده الشيطان في سكتة

(١) أخرجه البخاري في : ١٩ - كتاب التهجيد ، ١٦ - باب قيام النبي ﷺ بالليل

في رمضان وغيره ، حديث رقم ٦٣١ ، عن عائشة .

وأخرجه مسلم في : ٦ - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ١٢٥

(٢) [٦ / الأنعام / ٧٧] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ٦٣] .

من السكتات . ونطق بتلك الكلمات ، محاكياً نغمته ، بحيث سمعه من دنا إليه ، فظنها من قوله تعالى وأشاعها .

قال : وهذا أحسن الوجوه . ويؤيده ما روى عن ابن عباس من تفسير (تمنى) بـ (تلا) وكذا استحسن ابن العربي هذا التأويل . وقال قبله : إن هذه الآية نص في براءة النبي ﷺ مما نسب إليه ، وأن الشيطان زاده في قوله صلوات الله عليه ، لا أنه عليه السلام قاله .

قال : وقد سبق إلى ذلك الطبري فصوب هذا المعنى وحوّم عليه . واستحسن ابن العربي ذلك ، على فرض صحة القصة ، وإلا فقد قال : ذكر الطبري في ذلك روايات كثيرة باطلة لأصل لها . وقال تقي الدين بن تيمية^(١) : في الآية قولان والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك . والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة النجم بقوله (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) وقالوا : إن هذا لم يثبت . ومن علم أنه ثبت قال : هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم ، ولم يلفظ به الرسول ﷺ . ولكن السؤال وارد على هذا التقدير أيضا .

وقالوا في قوله (إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) : هو حديث النفس وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف ، فقالوا : هذا منقول نقلاً ثابتاً لا يمكن القدح فيه . وقالوا : الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير والحديث . والقرآن يوافق ذلك . فإن نسخ الله لما يلقى الشيطان ، وإحكامه آياته ، إنما يكون لرفع ما وقع في آياته ، وتمييز الحق عن الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها . وجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، إنما يكون ذلك ظاهراً يسمعه الناس ، لا باطناً في النفس . والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ ، من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ . وهذا النوع أدلّ على صدق الرسول ﷺ ، وبعده عن الهوى ، من ذلك النوع . فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله ، وهو مصدق في ذلك ، فإذا قال عن نفسه أن الثاني هو الذي

(١) في شرح دعوة ذى النون . كذا في هامش جامع البيان ، صحيفة ٢٩٥ .

من عند الله وهو الناسخ، وإن ذلك المرفوع الذى نسخه الله ليس كذلك ، كان أدل على اعتماده للصدق وقول الحق . وهذا كما قالت عائشة ^(١) رضى الله عنها : لو كان محمد كاتما شيئا من الوحي لكتّم هذه الآية (وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) ألا ترى أن الذى يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ولو كان خطأ . فبيان الرسول ﷺ أن الله أحكم آياته ونسخ ما ألغاه الشيطان ، هو أدل على تحريره للصدق وبراءته من الكذب . وهذا هو المقصود بالرسالة . فإنه الصادق المصدوق ﷺ تسليما . انتهى .

وفى كلامه رحمه الله نظر من وجوه :

أولا - دعواه أن المأثور يوافق القرآن . فإنه ذهب إلى أن الإلقاء إلقاء فى الآيات . ولا تدل الآية عليه ، لا مطابقة ولا التزاما . بل القول بذلك ينافى التنزيل والوحي منافاة النار للماء ، كما ستره .

وثانيا - دعواه أن تلك الرواية نقلها ثابت لا يمكن القدح فيه . فقد قدح فيها من لا يحصى من المتقدمين والمتأخرين . ويكفى أن تلميذه الحافظ ابن كثير قال : قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغرائيق . وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ، ظنا منهم أن مشركى قريش أسلموا . ولكنهم من طرق كلها رسالة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح . وتعداد طرقها ، بعد ضعف أصلها ، لا يفيد . وهذه شبهة يعتمدها كثير من الواقفين مع الروايات . يظنون أن الضعيف بكثرة طرقه يقوى . والحال أن الضعيف ضعيف كيفما جاء . وقد سرت هذه الشبهة للحافظ ابن حجر . فأخذ يقوى بعض طرقها ويصححها من جهة الإسناد . كما ستمر بك مناقشته . ولو كان لها أدنى رائحة من الصحة لأخرجها البخارى معلقة أو موقوفة ، أو أرباب السنن .

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ٣٣ - سورة الأحزاب ، ٩ - حدثنا

على بن حجر .

وثالثها - اعترافه بأن السؤال وارد على تقدير ثبوتها ، وإلقاء الشيطان ذلك في مسامعهم ، مما يبرهن أن فيها مغامر تنبذها العقول ، كما نبذتها صحة النقول .
فصل .

وقال الفخر الرازي في (تفسيره) : هذه الرواية باطلة موضوعة ، عند أهل التحقيق . واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول . أما القرآن فوجوه : (أحدها) قوله تعالى ^(١) (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَا أَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) . (وثانيها) قوله ^(٢) (قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أُتْبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) .

وثالثها - قوله ^(٣) (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) . ورابعها - قوله تعالى ^(٤) (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَا عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ، وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا) وكلمة (كاد) عند بعضهم معناها أنه لم يحصل . وخامسها - قوله ^(٥) (وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) وكلمة (لولا) تفيد انتفاء الشيء لا انتفاء غيره . فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل . وسادسها - قوله ^(٦) (كَذَلِكَ لِنُنَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) . وسابعها - قوله ^(٧) (سَفْقَرْتُكَ فَلَا تَنْسَى) .

وأما السنة فهي ما روى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة ، أنه سئل عن هذه القصة فقال : هذا وضع من الزنادقة . وصنف فيه كتاباً .

(١) [٦٩ / الحاقة / ٤٤ - ٤٦] . (٢) [١٠ / يونس / ١٥] .

(٣) [٥٣ / النجم / ٤٣] . (٤) [١٧ / الإسراء / ٧٣] .

(٥) [١٧ / الإسراء / ٧٤] . (٦) [٢٥ / الفرقان / ٣٢] .

(٧) [٨٧ / الأعلى / ٦] .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل . ثم أخذ يتكلم في أن رواية هذه القصة مطعون فيهم . وأيضاً فقد روى البخاري^(١) في صحيحه أن النبي عليه السلام قرأ سورة (والنجم) وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن . وليس فيه حديث الغرائيق . وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرائيق .

وأما المعقول فن وجوه :

أحدها - أن من جاوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان ، فقد كفر . لأن من المعلوم بالضرورة أن أعظم سميه كان في نقي الأوثان .

وثانيها - أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمناً أذى المشركين له . حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه . وإنما كان يصلي ، إذا لم يحضروها ، ليلاً ، أو في أوقات خلوة . وذلك يبطل قولهم .

وثالثها - أن معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقرأوا بهذا القدر من القراءة ، دون أن يقفوا على حقيقة الأمر . فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجداً ؟ مع أنه لم يظهر عندهم موافقته لهم .

ورابعها - قوله (فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ) وذلك لأن إحكام الآيات بإزالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول ، أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها . فإذا أراد الله إحكام الآيات ، لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآناً ، فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً ، أولى .

وخامسها - وهو أقوى الوجوه ، أنا لو جاوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه . وجوزنا

(١) [أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٥٣ - سورة النجم ٤ - باب

فاسجدوا لله واعبدوا ، حديث رقم ٥٩٠ .

في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ، ويبطل قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) فإنه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي ، وبين الزيادة فيه . فهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال ، أن هذه القصة موضوعة .

أكثر ما في الباب أن جماعاً من المفسرين ذكرها . لكنهم ما بلغوا حد التواتر . وخبر الواحد لا يمارض الدلائل العقلية والعقلية المتواترة . ثم أطال الرازي في تفصيل المباحث . ونقل عن أبي مسلم الأصفهاني ما توسع به البحث فانظره إن شئت .

فصل .

وكتب الأستاذ الإمام مفتي مصر ، الشيخ محمد عبده رحمه الله ، في هذه الآية مقالة بديعة ، تقتبس منها شذرات .

قال : يعلم كل ناظر في كتابنا الإلهي (القرآن) ما رفع الإسلام من شأن الأنبياء والمرسلين ، والمنزلة التي أحلهم من حيث هم حملة الوحي وقدوة البشر ، في الفضائل وصالح الأعمال . وتنزيهه إياهم عما رماهم به أعداؤهم وما نسبه إليهم المعتقدون بأديانهم . ولا يخفى على أحد من أهل النظر ، في هذا الدين القويم ، أنه قد قرر عصمة الرسل كافة من الزلل في التبليغ ، والزيغ عن الوجهة التي وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل . وخص خاتمهم محمداً ﷺ فوق ذلك بمزايا فصلت في ثنايا الكتاب العزيز . وعصمة الرسل في التبليغ عن الله ، أصل من أصول الإسلام . شهد به الكتاب وأيدته السنة ، وأجمعت عليه الأمة . وما خالف فيه بعض الفرق ، فإنما هو في غير الإخبار عن الله وإبلاغ وحيه إلى خلقه . ذلك الأصل الذي اعتمدت عليه الأديان ، حق لا يرتاب فيه مِلَّةٌ يفهم ما معنى الدين . ومع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعواناً يعملون على هدمه وتوهين ركنه . أولئك عشاق الرواة

وعبدية النقل. نظروا نظرة في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) الآية وفيما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما من أن (تمنى) بمعنى (قرأ) و (الأمنية القراءة) فعمى عليهم وجه التأويل ، على فرض صحة الرواية عن ابن عباس . فذهبوا يطلبون ما به يصح التأويل في زعمهم . فقيض لهم من يروى في ذلك أحاديث تختلف طرقها وتباین ألفاظها وتتفق في أن النبي ﷺ عندما بلغ منه أذى المشركين ما بلغ ، وأعرضوا عنه ، وجفاه قومه وعشيرته ، لعيبه أصنامهم وزرايته على آلتهم ، أخذوا الضجر من إعراضهم . ولحرصه على إسلامهم تمنى ألا ينزل عليه ما يفرهم ، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استألتهم . فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه سورة (والنجم) إلى آخر ما رواه ابن جرير أولا . وقد شايعه عليه كثير من المفسرين ، وفي طباع الناس إلف الغريب ، والتهافت على العجيب . فولعوا بهذه التفاسير ، ونسوا ما رآه جمهور المحققين في تأويلها . وذهب إليه الأئمة في بيانها .

جاء في صحيح البخاري ^(١) : وقال ابن عباس في (إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) . إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته . ويقال (أمنيته قراءته) (إلا أمانى) يقرؤون ولا يكتبون . انتهى .

فتراه حكى تفسير الأمنية بالقراءة بلفظ (يقال) بعد ما فسرهما بالحديث رواية عن ابن عباس . وهذا يدل على المغايرة بين التفسيرين . فما يدعيه الشراح أن الحديث في رأى ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة . ثم حكاية تفسير الأمنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد أنه غير معتبر عنده . وسيأتى أن المراد بالحديث حديث النفس .

وقال صاحب الإبريز : إن تفسير (تمنى) بمعنى (قرأ) و (الأمنية) بمعنى (القراءة) مروى عن ابن عباس في نسخة على بن أبي طلحة عن ابن عباس . ورواها على بن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن على بن أبي طلحة عن ابن عباس . وقد علم ما للناس

(١) أخرجه البخاري في : ٦٥ - كتاب التفسير ٢٢ - سورة الحج ، في الترجمة .

في ابن أبي صالح كاتب الليث ، وأن المحققين على تضعيفه . انتهى .

هذا ما في الرواية عن ابن عباس وهي أصل هذه الفتنة . وقد رأيت أن المحققين يضعفون راويها . وأما قصة الغرائيق ، فمع ما فيها من الاختلاف ، فقد طعن فيها غير واحد من الأئمة ، حتى قال ابن إسحاق : إنها من وضع الزنادقة . كما تقدم عن الرازي ، ونحوه عن القاضي عياض رحمه الله ، من وهنها وسقوطها من عدة أوجه .

وأما ما ذكره ابن حجر من أن القصة رويت برسلة من طرق على شرط الصحيح ، وأنه يحتاج بها من يرى الاحتجاج بالمرسل ، فقد ذهب عليه كما قال في الإبريز ؛ أن العصمة من العقائد التي يطلب فيها اليقين . فالحديث الذي يريد خرمها ونقضها ، لا يقبل على أى وجه جاء . وقد عدّ الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة ، من الأخبار التي يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال الحديث ، فما ظنك بالمراسيل ؟ وإنما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل وعدم الاحتجاج به ، فيما هو من قبيل الأعمال وفروع الأحكام ، لا في أصول العقائد ومعاهد الإيمان بالمرسل وما جاءوا به . فهي هفوة من ابن حجر يغفرها الله له .

هذا ما قاله الأئمة ، جزاهم الله خيراً ، في بيان فساد هذه القصة ، وأنها لا أصل لها . ولا عبرة يرأى من خالفهم . فلا يعتد بذكرها في بعض كتب التفسير . وإن بلغ أربابها من الشهرة ما بلغوا . وشهرة المبطل في بطله ، لا تنفخ القوة في قوله . ولا تحمل على الأخذ برأيه .

ثم قال الأستاذ رحمه الله : والآن أرجع إلى تفسير الآيات على الوجه الذي تحتملها ألفاظها وتدل عليه عباراتها . والله أعلم :

لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية ، وقرأ شيئاً من القرآن ، أن قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ) الآيات ، يحكي قدراً قدر المرسلين كافة ، لا يعدونه ولا يقفون دونه . ويصف شنشنة عرفت فيهم ، وفي أممهم . فلو صح ما قال أولئك المفسرون لكان المعنى : أن جميع الأنبياء والمرسلين قد سلط الشيطان عليهم فخلط في الوحي المنزل

إليهم . ولكنّه بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته الخ ، وهذان أقبح ما يتصور متصور في اختصاص الله تعالى لأنبيائه ، واختيارهم من خاصة أوليائه ! فلندع هذا الهذيان ، ولنعد إلى ما نحن بصدده .

ذكر الله لنبيه حالا من أحوال الأنبياء والمرسلين قبله ، ليبين له سنته فيهم . وذلك بعد أن قال ^(١) (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ) إلى آخر الآيات ثم قال ^(٢) « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَسِيٍّ » الخ ، فالقصص السابق كان في تكذيب الأمم لأنبيائهم . ثم تبعه الأمر الإلهي بأن يقول النبي ﷺ لقومه : إنني لم أرسل إليكم إلا لأنذركم بعاقبة ما أنتم عليه ، ولأبشر المؤمنين بالنعيم . وأما الذين يسمعون في الآيات والأدلة التي أقيمها على الهدى وطرق السعادة ، ليحوتوا عنها الأنظار ويحجبوها عن الأبصار ، ويفسدوا أثرها الذي أقيمت لأجله ، ويعاجزوا بذلك النبي ﷺ والمؤمنين ، أى يسابقوهم ليمجزوهم ويسكتوهم عن القول بذلك . وذلك بلبعضهم بالألفاظ وتحويلها عن مقصد قائمها ، كما يقع عادة من أهل الجدل والمحاكمة - هؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم . وأعقب ذلك بما يفيد أن ما ابتلى به النبي ﷺ من المعاجزة في الآيات ، قد ابتلى به الأنبياء السابقون . فلم يبعث نبي في أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف ، ويضادون أمانيه ، ويحولون بينه وبين ما يتبعى ، بما يلقون في سبيله من العثرات . فعلى هذا المعنى الذى يتفق مع ما لقيه الأنبياء جميعاً ، يجب أن تفسر الآية . وذلك يكون على وجهين :

الأول - أن يكون (تمنى) بمعنى (قرأ) و (الأمنية) بمعنى (القراءة) وهو معنى قد يصح . وقد ورد استعمال اللفظ فيه ؛ قال حسان بن ثابت في عثمان رضى الله عنهما :

(١) [٢٢ / الحج / ٤٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ٤٩ - ٥٢] .

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ وَآخِرَهُ لَأَقَىٰ حَمَامَ الْمَقَادِرِ^(١)

وقال آخر :

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ تَمَنَّى دَاوُدَ الزُّبُورَ عَلَى رِسْلِ

غير أن الإلقاء لا يكون على المعنى الذي ذكره ، بل على المعنى المفهوم من قولك (ألقى في حديث فلان) إذا أدخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه ، ولا يكون قد أراده . أو نسبت إليه ما لم يقله تعللاً بأن ذلك الحديث يؤدي إليه . وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون أنفسهم لمحاربة الحق ، يتبعون الشبهة ، ويسعون وراء الريبة ، فالإلقاء بهذا المعنى دأبهم ، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب بدسائسه ، وكل ما يصدر من أهل الضلال يصح أن ينسب إليه . ويكون المعنى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا حدث قومه عن ربه ، أو تلا وحياً أنزل إليه في هدى لهم ، قام في وجهه مشاغبون ، يحوّلون ما يتلوه عليهم عن المراد منه . ويتقوّلون عليه ما لم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ، ليمدوهم عنه ، ويعدلوا بهم عن سبيله ، ثم يحقّ الله الحق ويبطل الباطل . وما زال الأنبياء يصبرون على ما كذبوا وأوذوا ، ويجاهدون في الحق ، ولا يمتدّون بتعجيز المعجزين ، ولا بهزء المستهزئين إلى أى يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجادة . فينسخ الله تلك الشبه ويجتثها من أصولها ، ويثبت آياته ويقررها . وقد وضع الله هذه السنّة في الناس ليتمييز الخبيث من الطيب ، فيفتن الذين في قلوبهم مرض ، وهم ضغفاء العقول ، بتلك الشبه والوساوس ، فينطلقون وراءها . ويفتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد والمجاهدة ، فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها في جدلهم . ثم يتمحص الحق عند الذين أوتوا العلم ، ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه ، فيعلمون أنه الحق من ربك فيصدقون به ، فتختب وتطمئن له قلوبهم . والذين أوتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان القاطع الذي

(١) استشهد بهما في اللسان ، بالصفحة رقم ٢٩٤ من المجلد الخامس عشر (طبعة بيروت)

يستقرّ بالعقل في قرارة اليقين . وبين المغالطات وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم ، وتطير به مع الوهم ، وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال وأخرى ذات اليمين . وسواء أرجعت الضمير في (أنه الحق) إلى ما جاءت به الآيات المحكمات من الهدى الإلهي أو إلى القرآن ، وهو أجلّها ، فالمعنى من الصحة على ما يراه أهل التمكن . هؤلاء الذين أوتوا العلم هم الذين آمنوا . وهم الذين هداهم الله إلى الصراط المستقيم . ولم يجعل للوهم عليها سلطاناً ، فيحيد بهم عن ذلك النهج القويم . وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول ومرضى القلوب ، أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع ، الذين لا تلين أفئدتهم ولا تبش للحق قلوبهم ، فأولئك لا يزالون في ريب في الحق أو الكتاب . لا تستقر عقولهم عليه ، ولا يرجعون في متصرفات شئونهم إليه . حتى تأتي ساعة هلاكهم بغتة ، فيلاقوا حسابهم عند ربهم . أو إن امتد بهم الزمن ، ومادّهم الأجل ، فسيصيبهم عذاب يوم عقيم . يوم حرب يسامون فيه سوء العذاب ، القتل أو الأسر . ويقذفون إلى مطارح الذل وقرارات الشر . فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة ، بل يسلبون ما كان لديهم ويساقون إلى مصارع الهلكة . وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته . ما أقرب هذه الآيات في مغازيها ، إلى قوله تعالى في سورة آل عمران ^(١) (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذْكُرْ إِلَّا أَولُوا الْأَلْبَابِ) وقد قال بعد ذلك ^(٢) (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ) ثم قال ^(٣) (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) الخ الآيات .

(١) [٣ / آل عمران / ٧] . (٢) [٣ / آل عمران / ١١٦] .

(٣) [٣ / آل عمران / ١٢] .

وكان إحدى الطائفتين من القرآن شرح للأخرى . فالذين في قلوبهم زيغ هم الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . والراسخون في العلم هم الذين أوتوا العلم ، وهؤلاء هم الذين يعلمون أنه الحق من ربهم . فيقولون آمنا به كل من عند ربنا ، فتختب له قلوبهم ، وإن الله لهاديهم إلى صراط مستقيم . وأولئك هم الذين يفتنون بالتأويل ، ويشتملون بقال وقيل بما يلقى إليهم الشيطان ، ويصرفهم عن مرأى البيان ، ويميل بهم عن محجة الفرقان . وما يتكثرون عليه من الأموال والأولاد ، لن يغنى عنهم من الله شيئاً . فستوافيهم آجالهم ، وتستقبلهم أعمالهم . فإن لم يوافهم الأجل على فراشهم . فسيغلبون في هراشهم . وهذه سنة جميع الأنبياء مع أممهم ، وسبيل الحق مع الباطل من يوم أن رفع الله الإنسان إلى منزلة يميز فيها بين سمادته وشقائه ، وبين ما يحفظه وما يذهب ببقائه . وكلا لا مدخل لقصة الغرائق في آيات آل عمران ، لا مدخل لها في آيات سورة الحج ، هذا هو الوجه الأول في تفسير آيات (وَمَا أَرْسَلْنَا) إلى آخرها ، على تقدير أن (تَمْنَى) بمعنى (قرأ) وأن (الأمنية) بمعنى (القراءة) والله أعلم .

الوجه الثاني في تفسير الآيات - أن التمني على معناه المعروف . وكذلك الأمنية . وهي أفعولة بمعنى المُنِيَّة . وجمعها . أماني كما هو مشهور . قال أبو العباس أحمد بن يحيى : التمني حديث النفس بما يكون وبما لا يكون . قال : والتمنى سؤال الرب . وفي الحديث (إذا تمنى أحدكم فليكثر فإنما يسأل ربه) وفي رواية (فليكثر) قال ابن الأثير : (التمني) تشهي حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وبما لا يكون . وقال أبو بكر : تمنيت الشيء إذا قدرته وأحببت أن يصير إلي . وكل ما قيل في معنى التمني على هذا الوجه ، فهو يرجع إلى ما ذكرناه ويتبعه معنى الأمنية . ما أرسل الله من رسول ولا نبي ليدعو قومًا إلى هدى جديد ، أو شرع سابق شرعه لهم ، ويحملهم على التصديق بكتاب جاء به نفسه إن كان رسولاً ، أو جاء به غيره إن كان نبياً يُبعث ليحمل الناس على اتباع من سبقه ، إلا وله أمنية في قومه . وهي أن يتبعوه

ويفحازوا إلى ما يدعوههم إليه ، ويستشفوا من دأهم بدوائه ، ويعصوا أهواءهم بإجابة ندائه . وما من رسول أرسل إلا وقد كان أحرص على إيمان أمته . وتصديقهم برسالته ، منه على طعامه الذى يطعم ، وشرابه الذى يشرب ، وسكنه الذى يسكن إليه . ويفدو عنه ويروح علينا . وقد كان نبينا ﷺ من ذلك فى المقام الأعلى ، والمكان الأسنى . قال الله تعالى (١) : (فَلَمَّا كَانَ بَاخِيعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ ءَانَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (٢) وقال (٣) : (أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) وقال (٤) : (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) وفى الآيات ما يطول سرده ، مما يدل على أمانيه ﷺ المتعلقة بهداية قومه ، وإخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه ، إلى نور ماجاء به . وما من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ، ألقى الشيطان فى سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات . ووسوس فى صدور الناس . وسلبهم الانقفاع بما وهبوا من قوة العقل والإحساس ، فثاروا فى وجهه ، وصدوه عن قصده ، وعاجزوه حتى لقد يعجزونه ، وجادلوه بالسلاح والقول حتى لقد يقهرونه . فإذا ظهروا عليه ، والدعوة فى بدايتها ، وسهل عليهم إيذاؤه وهو قليل الأتباع ضعيف الأنصار ، ظنوا الحق من جانبهم ، وكان فيما ألقوه من العوائق بينه وبين ماعمد إليه ، فتنه لهم .

غلبت سنة الله فى أن يكون الرسل من أواسط قومهم ، أو من المستضعفين فيهم ، ليكون العامل فى الإذعان بالحق محض الدليل وقوة البرهان . وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن يدعى إليه على قبوله . ولا كيلا يشارك الحق الباطل فى وسائله ، أو يشاركه فى نصب شراكه وحبائله . أنصار الباطل فى كل زمان ، هم أهل الأنفة والقوة والجاه والاعتزاز بالأموال والأولاد والعشيرة والأعوان ، والفرور بالزخارف . والزهو بكثرة المعارف .

(١) [١٨ / الكهف / ٦] . (٢) [١٢ / يوسف / ١٠٣] .

(٣) [١٠ / يونس / ٩٩] .

وتلك الخصال إنما تجتمع كلها أو بعضها في الرؤساء وذوى السكينة من الناس فتذهلهم عن أنفسهم ، وتصرف نظرهم عن سبيل رشدهم . فإذا دعا إلى الحق داع ، عرفته القلوب النقية من أوضار هذه الفوائن ، وفزعت إليه النفوس الصافية والعقول المستعدة لقبوله ، بخلوها من هذه الشواغل .

وقلما توجد إلا عند الضعفاء وأهل المسكنة فإذا التف هؤلاء حول الداعي وظافروه على دعوته ، قام أولئك المغرورون يقولون ^(١) (مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) فإذا استدرجهم الله على سنته ، وجعل الجدال بينهم وبين المؤمنين سجلاً ، افتتن الذين في قلوبهم مرض من أشياعهم ، وافتتنوا هم بما أصابوا من الظفر في دفاعهم . ولكن الله غالب على أمره . فيمحق ما ألقاه الشيطان من هذه الشبهات ، ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات ، ويهب السلطان لآياته فيحكمها ويثبت دعائمها ، وينشئ من ضعف أنصارها قوة ، ويخلف لهم من ذلتهم عزة ، وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشيطان هي السفلى ^(٢) (فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) وفي حكاية هذه السنة الإلهية التي أقام عليها الأنبياء والمرسلين ، تسليمة لنبينا ﷺ عما كان يلاقى من قومه ، ووعد له بأنه سيمكمل له دينه ، ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته ، مع استلفاتهم إلى سيرة من سبقهم ^(٣) (أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) ^(٤) (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ، مَسْتَهْمُهُمُ الْبُاسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

هذا هو التأويل الثانى فى معنى الآية . ويدل عليه ما سبق من الآيات ، ويرشد إلى سياق

(١) [١١ / هود / ٢٧ . (٢) [١٣ / الرعد / ١٧] .

(٣) [٢٩ / العنكبوت / ٢] . (٤) [٢ / البقرة / ٢١٤] .

القصص السابق في قوله ^(١) (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ) الخ. وأنت ترى أن قصة الغرائيق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح .

وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الإبريز . وإنى أنقله بحرفه ، وما هو بالبعيد عن هذا بكثير . قال (بعد ذكر أمانى الأنبياء فى أممهم ، وطمعهم فى إيمانهم ، وشأن نبينا ﷺ فى ذلك ، على نحو يقرب مما ذكرناه فى الوجه الثانى) :

ثم إن الأمة تختلف كما قال تعالى ^(٢) (وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ) فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوسوس الفاحشة له فى الرسالة، الموجبة لكفره. وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو أيضاً من وسوس، لأنها لازمة للإيمان بالغيب فى الغالب، وإن كانت تختلف فى الناس بالقلّة والكثرة، وبحسب المتعلقات إذا تقرر هذا فعنى (عنى) أنه يعمى لهم الإيمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح ، فهذه أمنية كل رسول ونبي . وإلقاء الشيطان فيها ، يكون بما يلقى فى قلوب أمة الدعوة من الوسوس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ، ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدةانية والرسالة ، ويبقى ذلك عز وجل فى قلوب المنافقين والكافرين ليفتنوا به . فنخرج من هذا أن الوسوس تلقى أولاً فى قلوب الفريقين معاً ، غير أنها لا تدوم على المؤمنين ، وتدوم على الكافرين . انتهى .

وأنت إذا نظرت بين هذا التفسير وبين ماسبقه، تبين الأحق بالترجيح. ولو صح ما قاله نقلة قصة الغرائيق لارتفعت الثقة بالوحى وانتقض الاعتماد عليه، كما قاله القاضى البيضاوى وغيره .

ولكان الكلام فى الناسخ كالكلام فى المنسوخ . يجوز أن يلقى فيه الشيطان ما يشاء، ولا نهىم أعظم ركن للشرائع الإلهية وهو العصمة. وما يقال فى الخروج عن ذلك، ينفر منه الذوق ولا ينظر إليه العقل. على أن وصف العرب لآلهم بأنهم الغرائيق العلى لم يرد لافى نظمهم ولا فى خطبهم. ولم ينقل عن أحد أن ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم. إلا ما جاء فى معجم ياقوت غير مسند

(١) [٢٢ / الحج / ٤٢] . (٢) [٢ / البقرة / ٥٣] .

ولامعروف بطريق صحيح وهذا يدل على أن القصة من اختراع الزنادقة، كما قال ابن إسحاق. وربما كانت منشأ ما أورده ياقوت. ولا يخفى أن الغرنوق والغرنيق لم يعرف في اللغة إلا اسماً لطائر مائي أسود أو أبيض. أو هو اسم الكركي أو طائر يشبهه والغرنيق (بالضم وكزنبور وقنديل وسموأل وفردوس وقرطاس وعلابط) معناه الشاب الأبيض الجميل. وتسمى الخصلة من الشعر المفقلة (الغرنوق) كما يسمى به ضرب من الشجر. ويطلق الغرنوق والغرائيق على ما يكون في أصل العوسج اللين النبات. ويقال (لمة غرائقة) و(غرائقية) أى ناعمة تفيئها الريح. أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ. ولا شيء في هذه المعاني يلائم الآلهة والأصنام، حتى يطلق عليها في فصيح القول الذي يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام. فلا أظنك تعتقد إلا أنها من مفتريات الأعاجم ومختلقات الملبسين ، ممن لا يميز بين حر الكلام ، وما استعبد منه لضعفاء الأحلام. فراج ذلك على من يذهله الولوع بالرواية، عما تقتضيه الدراية^(١) (رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ) . انتهى كلام الأستاذ رحمه الله .

وممن جزم بوضع هذه القصة جزمًا باتًا ، الإمام ابن حزم رحمه الله . حيث قال في كتابه (الملل في الرد على من لم يوجب العصمة على الأنبياء مأمثاله : استدلوا بالحديث الكاذب الذي لم يصح قط في قراءته عليه السلام في (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ) وذكروا تلك الزيادة المفترقة التي تشبهه مَنْ وَضَعَهَا مِنْ قَوْلِهِمْ (وإنها لهى الغرائيق العلى وإن شفاعتها لترتجى) ثم قال بعد : وأما الحديث الذى فيه (الغرائيق) فكذب بحت ، موضوع . لأنه لم يصح قط من طريق النقل ، ولا معنى للاشتغال به ، إذ وضع الكذب لا يمجزه أحد . وأما قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) الآية ، فلا حجة لهم فيها . لأن الأمانى الواقعة في النفس لا معنى لها . وقد تمنى النبي صلى الله عليه وسلم إسلام عمه أبى طالب ،

(١) [٣ / آل عمران / ٨] .

ولم يرد الله عز وجل كون ذلك . فهذه الأمانى التى ذكرها الله عز وجل لاسواها ، وحاشا لله أن يتمنى نبيّ معصية . وبالله تعالى التوفيق .

وهذا الذى قلناه هو ظاهر الآية دون مزيد تكاف ، ولا يحل خلاف الظاهر إلا بظاهر آخر وبالله تعالى التوفيق . انتهى ، وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٥] (وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْثَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ)

«وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ» أى فى شك وجدال من التنزيل الكريم ، لما طبع على قلوبهم «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ» أى القيامة «بَغْثَةً» أى فجأة «أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ» أى يوم لا يوم بعده . كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، فما لا يوم بعده يكون عقياً . والمراد به الساعة أيضاً . كأنه قيل (أو يأتىهم عذابها) فوضع ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل . أفاده أبو السعود . أى لأنه بمعنى (شديد) لا مثل له فى شدته . وتقدم فيما نقلناه وجه آخر وهو أن المعنى : لا يزال الذين كفروا فى ريب من الحق أو الكتاب ، لا تستقر عقولهم عليه حتى تأتى ساعة هلاكهم بغتة ، فيلاقون حسابهم عند ربهم . أو إن امتد بهم الزمن ، وما دهم الأجل ، فسيمصّبهم عذاب يوم عقيم . يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل أو الأسر . فلا ينتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة . بل يسلبون ما كان لديهم ، ويساقون إلى مصارع الهلكة ، وهذا هو العقم فى أتم معانيه وأشأم درجاته . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَخْضَعُونَ لِمَنْ يُنْهَى عَنْهُمْ ، فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ)

« الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ » أى يوم نزول مريتهم « لِلَّهِ » أى وحده، بحيث لا يكون لأحد تصرف لاحقيقة ولا صورة « يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » أى بالمجازاة، ثم فسر الحكم بقوله تعالى « فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ » .

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)

[٥٨] (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا

حَسَنًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[٥٩] (لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ)

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ * وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا » أى فى الجهاد « أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى من الجنة ونعيمها « وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ »

قال فى الإكمال : استدل بقوله تعالى (ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا) فضالةُ بن عبيد الأنصارى الصحابى على أن المقتول والميت فى سبيل الله سواء فى الفضل . أخرج ابن أبى حاتم وهو رأى قاله جماعة . وخالفه آخرون ففضلوا المقتول . وأخرج ابن أبى حاتم عن سليمان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (فمن مات مرابطاً أجرى الله عليه مثل ذلك الأمر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتانين . وافرءوا ما شئتم) (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إلى (حَلِيمٌ)

القول فى تاويل قوله تعالى :

[٦٠] (ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ، إِنَّ

اللَّهُ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ)

« ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ » أى ومن جازى ظالماً بمقدار ظلمه ، ولم يزد فى الاقتصاص منه ، ثم تعدى عليه الظالم ثانياً ، لينصرن الله ذلك المظلوم . وإعاسى الابتداء بالعقاب ، الذى هو الجزاء ، للازدواج والمشاكلة . أو لأنه سبب الجزاء وفى قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ » تعريض بالحث على العفو والمغفرة . فإنه تعالى مسح كمال قدرته ، لما كان يعفو ويغفر ، فغيره أولى بذلك . وتنبيه على قدرته على النصر . إذ لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده . فظهر سر مطابقة (العفو الغفور) لهذا الموضع .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

[٦٢] ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ)

« ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » أى ذلك النصر بسبب أنه قادر . ومن آيات قدرته البالغة ، إيلاج أحد الملوك فى الآخر ، زيادته فى أحدهما ما ينقص من ساعات الآخر « وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » أى ذلك الصنع الباهر بأنه المعبود الحق الذى لا مثل له ولا ندم . وأن الذى يدعوه المشركون هو الباطل الذى لا يقدر على صنعة شيء . بل هو المصنوع . أى فتركون عبادة من منه النعم ويبيده الضر ، وتمبدون الباطل الذى لا تنفعكم عبادته . وأن الله هو ذو العلو على كل شيء ، والعظيم الذى كل شيء

دون عظمته ، فلا أعلى منه ولا أكبر . ثم أشار إلى آية من آيات صنعه الباهر ، تقريراً لألوهيته ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)

[٦٤] (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

[٦٥] أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ » أى جعلها معدة لنا فعمكم « وَالْفُلْكَ » أى وسخر لكم البحر ، حتى أن الفلك « تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » أى بتيسيره لنا فعمكم « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » أى بمشيئته وقدرته . أى ما يمسكها ويحفظها إلا بذلك ، رحمة بكم ، فاشكروا آلاءه وحده « إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » أى فى آلائه وآياته المذكورة ، وما أبان فيها من طرق الاستدلال على وحدانيته ، لا إله إلا هو . وكذلك من آيات ألوهيته ما تضمنه قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ)

« وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ » أى جحود للنعم ، بعبادة غير بارئها . أو إشراكه معه ، مع أنه هو الخالق لكل ذلك ، والقادر عليه ، وغيره لا يملك شيئاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ، فَلَا يُبَازِرُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ ، وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ، إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ)

« لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا » أى وضعنا « مَنْسَكًا » أى شريعة ومعتقداً « هُمْ نَاسِكُوهُ » فَلَا يُبَازِرُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ » أى فى ذلك الجعل والوضع والحوار فى تنوعه فى كل أمة ، وعدم وحدته . أو فى أمر ما جئتهم به ، زعماً بأنه يستغنى عنه بما شرع قبله . لأنه جهل بحكمته تعالى فى تكوين الأمم وتربيتهما بالشرائع المناسبة لزمناها ومكانها ، وحياتها ومنشئها . ولذلك كانت هذه الشريعة أهدي للامتنان بها ، حينما بلغ الإنسان أعلى طور الرشد ولذلك وجبت الدعوة إليها خاصة كما قال سبحانه « وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ » أى اثبت على دينك ثباتاً لا يطمعون أن يخذعوك عنه . أو معناه : ثابر على الدعوة إلى ما أمرت به . فلا تضرك منازعتهم . وعلى السكل اتباعك وعدم مخالفتك ، لاستقرار الأمر على شريعتك . لأنها الطريق القويم .

هذا ، وقال ابن جرير^(١) : أصل المنسك فى كلام العرب ، الموضع المعتاد الذى يعقده الرجل ويألفه ، خير أو شر . يقال (إن فلان منسكاً يعقده) يراد مكاناً يغشاه ويألفه خير أو شر . وقد اختلف أهل التأويل فى معنى (المنسك) هنا ، فقيل : عيداً . وقيل : إراقة الدم (ثم استظهر) أن المعنى إراقة الدم أيام النحر بمنى . لأن المناسك التى كان المشركون جادلوا فيها رسول الله ﷺ ، كانت إراقة الدم فى هذه الأيام ، أى فلا ينافى ذلك هؤلاء المشركون فى ذبحك ومنسكك بقولهم (أنا كلون ما قتلتم ، ولا تأكلون الميتة التى قتلها الله) ؟ انتهى .

(١) انظر الصفحة رقم ١٩٨ من الجزء السابع عشر .

وعليه ، فيكون المراد بالجعل في قوله تعالى (جَعَلْنَا) الجعل القدرى لا التشريعى . كما قال ^(١) (وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيُّهَا) أى هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته . فلا تتأثر بمنازعتهم لك ، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق . وهذا كقوله تعالى ^(٢) (وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بِمَعْدٍ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ) أشار له ابن كثير . ونقل الرازى عن ابن عباس ، فى رواية عطاء ، أن المراد بالنسك الشريعة والنهاج . قال : وهو اختيار القفال ، لقوله تعالى ^(٣) (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) وهو الذى آثرناه أولاً لظهوره فيه . والله أعلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (وَإِنْ جَادُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

[٦٩] (اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

[٧٠] (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ،
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[٧١] (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ ،
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

« وَإِنْ جَادُلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » أى من أمر الدين « أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا » أى حجة « وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ » أى من ضرورة العقل أو استدلاله « وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » أى يدفع عنهم ما يراد بهم .

(١) [٢ / البقرة / ٤٨] . (٢) [٢٨ / القصص / ٨٧] . (٣) [٥ / المائدة / ٤٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ،
يَكَادُونَ يَسْطُونِ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، قُلْ أَفَأَنْتُمْ بُشِّرُ
مِنْ ذَلِكُمْ ، النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ)

[٧٣] (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ
مِنْهُ . ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)

[٧٤] (مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ » أى حال كونها واضحة الدلالة على حقيقتها وما تضمنته
« تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ » أى الإنكار أو الفظيع من التهميم والبسور .
أو الشر الذى يقصدونه بظهور خائله « يَكَادُونَ يَسْطُونِ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا »
أى يبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب . قال فى (فتح البيان) : وكذلك أهل البدع
المضلة ، إذا سمع الواحد منهم ما يتلوهُ العالم عليه ، من آيات الكتاب العزيز أو من السنة
الصحيحة ، مخالفا لما اعتقده من الباطل ، رأيت فى وجهه من المنكر ، ما لو تمكن من أن يسطو
بذلك لفعل به ما لا يفعله بالمشركين والله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق « قُلْ
أَفَأَنْتُمْ بُشِّرُ مِنْ ذَلِكُمْ ، النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا
النَّاسُ ضُرِبَ « أَيْ بَيِّنٌ » « مَثَلٌ » أى حال مستغرب « فَاسْتَمِعُوا لَهُ » أى تدبروه حق
تدبره . فإن الاستماع بلا تدبر وتعقل لا ينفع « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » يعنى
الأصنام « لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ » أى لخلقهم متعاونين . وتخصيصه الذباب ، لمهاتته

وضعه واستقذاره . وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل المشركين . حيث وصفوا بالإلهية التي تقتضى الاقتدار على المقدورات كلها ، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها ، صوراً وتماثيل ، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله ، ولو اجتمعوا لذلك « وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » أى هذا الخلق الأقل الأذل ، لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه ، لم يقدرُوا « ضَعُفَ الطَّالِبُ » أى الصنم يطلب ما سلب منه « وَالْمَطْلُوبُ » أى الذباب بما سلب . وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب فى الضعف . ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف . فإن الذباب حيوان وهو جاد . وهو غالب وذلك مغلوب . وجوز أن يراد بالطالب عابد الصنم ، والمطلوب معبوده . قيل : وهو أنسب بالسياق لأنه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم . فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التذليل . واختار الوجه الأول الرغشرى . لما فيه من التهمك ، بجعل الصنم طالباً على الفرض تهماً . وأنه أضعف من الذباب لأنه مسلوب وجاد ، وذلك حيوان بخلافه .

وهذه الجملة التذليلية إخبار أو تعجب . وقوله تعالى « مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » أى ما عرفوه حق معرفته ، حيث أشركوا به ما لا يمتنع من الذباب ولا ينتصف منه « إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » أى قادر وغالب . فكيف يتخذ العاجز المغلوب شبيهاً به . أو لقوى بنصر أوليائه ، عزيز ينتقم من أعدائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

[٧٦] (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

«اللَّهُ يَصْطَفِي» أن يختار «مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ» أى فلا تكرر لاصطفائه من البشر من شاء لرسالته . ولا وجه لقولهم ^(١) : (أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا) قال

أبو السعود : كأنه تعالى . لما قرر وحدانيته ، في الألوهية ، ونفى أن يشاركه فيها شيء من الأشياء بين أن له عباداً مصطفين للرسالة ، يتوسل بإجابتهم والافتداء بهم ، إلى عبادته عز وجل . وتقدمه بنحوه البضاوى « إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » أى ما عملوه وما سيعملونه « وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » أى لأنه مالِكها . فلا يسئل عما يفعل ، من الاصطفاء وغيره ، وهم يسألون .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا » أى صلّوا . وعبر عن الصلاة بهما ، لأنهما أعظم أركانها . أو اخضعوا له تعالى ، وخرّوا له سجداً ، لا لغيره « وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ » أى تحرّوه . كصلة الأرحام ومواساة الأيتام والحض على الإطعام والانتصاف بمكارم الأخلاق « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى لكي تسعدوا وتفوزوا بالجنة .

تنبيهات

الأول لم يختلف العلماء فى السجدة الأولى من هذه السورة . واختلفوا فى السجدة الثانية - هذه - فروى عن عمر وعلى وابن عمر وابن مسعود وابن عباس وأبى الدرداء وأبى موسى ؛ أنهم قالو : فى الحج سجدتان . وبه قال ابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق ، يدل عليه ما روى ^(١) عن عقبة ابن عامر قال . قلت يارسول الله أى الحج سجدتان ؟ قال : نعم

(١) أخرجه أبو داود فى : ٧ - كتاب سجود القرآن ، ١ - باب تفریع أبواب السجود ، وكم سجدة فى القرآن ، حديث رقم ١٤٠٢ .

وأخرجه الترمذى فى : ٤ - كتاب الجمعة ، ٥٤ - باب ما جاء فى السجدة فى الحج ،

ومن لم يسجد لها فلا يقرأها . أخرجه الترمذى وأبو داود . وعن عمر بن الخطاب^(١) أنه قرأ سورة الحج فسجد فيها سجدتين وقال : إن هذه السورة فضلت بسجدتين . أخرجه مالك في (الموطأ) وذهب قوم إلى أن في الحج سجدة واحدة ، وهى الأولى ، وليست هذه بسجدة . وهو قول الحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير وسفيان الثوري وأبى حنيفة ومالك . بدليل أنه قرن السجود بالركوع . فدل ذلك أنها سجدة صلاة ، لا سجدة تلاوة . كذا في (لباب التأويل) أى لأن المهود في مثله من كل آية ، قرن الأمر بالسجود فيها بالركوع ، كونه أمراً بما هو ركن للصلاة ، بالاستقراء نحو^(٢) (وَأَسْجُدْ وَارْكَعْ) وإذا جاء الاحتمال سقط الاستدلال .

وما روى من الحديث المذكور ، قل الترمذى رحمه الله : إسناده ليس بالقوى . وكذا قال غيره . كما في (شرح الهداية) لابن الهمام .

قال الخفاجى : لكن يرد عليه ما في (الكشف) أن الحق أن السجود حيث ثبت ، ليس من مقتضى خصوص في تلك الآية . لأن دلالة الآية غير مقيدة بحال التلاوة البتة . بل إنما ذلك بفعل رسول الله ﷺ أو قوله . فلا مانع من كون الآية دالة على فرضية سجود الصلاة . ومع ذلك يشرع السجود عند تلاوتها ، لما ثبت من الرواية فيه . اهـ .

الثانى - قال في (اللباب) اختلف العلماء في عدة سجود التلاوة . فذهب الشافعى وأحمد وأكثر أهل العلم إلى أنها أربع عشرة سجدة . لكن الشافعى قال : في الحج سجدتان . وأسقط سجدة (ص) . وقال أبو حنيفة : في الحج سجدة . وأثبت سجدة (ص) . وبه قال أحمد ، في إحدى الروايتين عنه . فعمده أن السجدة خمس عشرة سجدة . وذهب قوم إلى أن الفصل ليس فيه سجود . يروى ذلك عن أبى بن كعب وابن عباس . وبه قال مالك .

(١) أخرجه في الموطأ في : ١٥ - باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ، حديث رقم ١٣

(طبعنا) . (٢) [٣ / آل عمران / ٤٣] .

فعلى هذا يكون سجود القرآن إحدى عشرة سجدة . يدل عليه ما روى عن أبي الدرداء ^(١) ؛ أن النبي ﷺ قال : في القرآن إحدى عشرة سجدة . أخرجه أبو داود وقال : إسناده واه . ودليل من قال (في القرآن خمس عشرة سجدة) ما روى عن عمرو بن العاص قال : أقرأني رسول الله ﷺ في القرآن خمس عشرة سجدة . منها ثلاث في الفصل . وفي سورة الحج سجدتان . أخرجه أبو داود ^(٢) . وصح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : سجدنا مع رسول الله ﷺ في (اقرأ) و (إذا السماء انشقت) أخرجه مسلم ^(٣) . انتهى .

والخمس عشرة : في الأعراف ، والرعد ، والنحل ، والإسراء ، ومريم ، والحج ، والفرقان ، والنمل ، وآلم تنزيل ، وص ، وحم ، السجدة ، والنجم ، والانشقاق ، وقرأ .

والفصل من سورة الحجرات إلى آخر القرآن ، في أصح الأقوال . سمي مفصلاً لكثرة الفصل بين سورة .

الثالث سجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع . وبه قال مالك والشافعي وأحمد . لقول ابن عمر : كان النبي ﷺ يقرأ علينا السورة فيها السجدة ، فيسجد ونسجد معه ، حتى ما يجد أحدنا موضعاً لجهته . رواه الشيخان ^(٤) .

(١) أخرجه الترمذی (لا أبو داود) في : ٤ - كتاب الجمعة ، ٤٧ - باب ما جاء في سجود القرآن .

(٢) أخرجه في : ٧ - كتاب السجود ، ١ - باب تفریع أبواب السجود ، وكم سجدة في القرآن ، حديث رقم ١٤٠١ .

(٣) أخرجه الترمذی (لا مسلم) في : ٤ - كتاب الجمعة ، ٥٠ - باب ما جاء في السجدة في (اقرأ باسم ربك الذي خلق) و (إذا السماء انشقت) .

(٤) أخرجه البخاری في : ١٧ - كتاب سجود القرآن ، ٨ - باب من سجد لسجود القارئ ، حديث رقم ٥٩٢ .

وأخرجه مسلم في : ٥ - كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٣ (طبعنا) .

وقال عمر ^(١) : إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء . رواه البخارى . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)

« وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ » عالمٌ فى جهاد الكفار والظلمة والنفس . و (حق) منصوب على المصدرية . والأصل (جهاداً فيه حقاً) فمكس ، وأضيف الحق إلى الجهاد مبالغة ، ليدل على أن المطلوب القيام بمواجبه وشرائطه على وجه التمام والكمال بقدر الطاقة . وعن الرضى : إن (كل) و (جد) و (حق) إذا وقعت تابعة لاسم جنس ، مضافة لمثل متبوعها لفظاً ومعنى ، نحو (أنت عالم كل عالم) أو (جد عالم) أو (حق عالم) أفادت أنه تجمع فيه من الخلال ما تفرق فى الكل . وأن ما سواه باطل أو هزل . وقوله تعالى « هُوَ اجْتَبَاكُمْ » أى اختاركم لدينه ولنصرته . وفيه تنبيه على مقتضى للجهاد والداعى إليه . لأن المختار إنما يختار من يقوم بخدمته . وهى بما ذكر . ولأن من قرّبه العظيم ، يلزمه دفع أعدائه ومجاهدة نفسه ، بترك ما لا يرضاه . « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » أى فى جميع أمور الدين من ضيق ، بتكليف ما يشق القيام به . كما كان على من قبلنا . فالتعريف فى (الدين)

(١) أخرجه البخارى فى : ١٧ - كتاب سجود القرآن ، ١٠ - باب من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود ، حديث رقم ٥٩٣ ونصه : « يا أيها الناس إنا نمرّ بالسجود ، فمن سجد فقد أصاب . ومن لم يسجد فلا إثم عليه » .

للاستغراق . قال في (الإكليل) : هذا أصل القاعدة (المشقة تجلب التيسير) « مِلَّةٌ أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ » منصوب على المصدرية ، بفعل دل عليه ما قبله من نفي الحرج . بعد حذف مضاف أى وسع دينكم توسيع ملة أبيكم إبراهيم . أو على الإغراء بتقدير (اتبعوا أو الزموا) أو الاختصاص بتقدير (أعني) ونحوه . أو هو بدل أو عطف بيان مما قبله . فيكون مجروراً بالفتح ، أفاده الشهاب . قال القاضي ؛ وإنما جعله أباهم لأنه أبو رسول الله ﷺ ، وهو كالآب لأمته ، من حيث إنه سبب لحياتهم الأبدية . أو لأن أكثر العرب كانوا من ذريته . فغلبوا على غيرهم .

وقال القاشاني : معنى أبوته كونه مقدماً في التوحيد ، مفيضاً على كل موحد ، فكلهم من أولاده . وقوله تعالى « هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ » أى من قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة . والجملة مستأنفة . وقيل : إنها كالبدل من قوله (هُوَ اجْتَبَاكُمْ) ولذا لم يعطف « وَفِي هَذَا » أى القرآن . أى فضلكم على الأمم وسماكم بهذا الاسم الأكرم وقيل : الضمير لـ (إبراهيم) عليه السلام .

قال القاضي : وتسميتهم بـ (مسلمين) في القرآن ، وإن لم يكن منه ، كان بسبب تسميته من قبل ، في قوله ^(٢) (وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ) أى لدخول أكثرهم في الذرية . فجعل مسميهم مجازاً . « لَيْسَكُونِ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ » أى بأنه قد بلغكم رسالات ربكم « وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » أى بتبليغ الرسل رسالات الله إليهم « فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ نَنَعَمْ الْمَوْلَى وَنَعْمُ النَّصِيرُ » أى : وإذ خصكم بهذه الكرامة والأثرة ، فاعبدوه وأنفقوا مما آتاكم بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، وثقوا به ، ولا تطلبوا النصر والولاية إلا منه ، فهو خير مولى وناصر .



(١) [٢ / البقرة / ١٢٨] .